

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكية وهي مائة وثمانان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ .

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ هذه الأوصاف الثلاثة، صفاتٌ لموصوف واحد، وهم الملائكة الأبرار الأطهار، وصفوا بالصافات لأنهم يقفون صفوفاً لأداء العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ وكما قال ﷺ في حديث جابر بن سمرة «أَلَا تَصْفُونَ كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: يتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصون في الصف»^(١) وأما وصفهم بالزاجرات فإنهم يزجرون السحاب، أو يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم، أو عن استرقاق السمع، وأما وصفهم بالتاليات فالمراد به التلاوة على الأنبياء وغيرها من التسبيح، والتحميد، والتقدیس. أقسم تعالى بهذه الطوائف من الملائكة، الصافات قوائمها في الصلاة، التاليات لآيات الله، على أن الله واحد لا شريك له، وفي الحلف بالشيء تعظيم للمحلوف به،

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وانظر جامع الأصول ٥/٦١٥.

والحكمة في القسم بهذه الأشياء، التنبية على شرف ذواتها، فإن قيل: الحلف إن كان لإثبات المطلوب عند المؤمن، فهو مقرُّ به، وعند الكافر لا يقرُّ به، فهذا الحلف عديم الفائدة؟ فالجواب: أنه تعالى قرَّر التوحيد، وصحة البعث بالدلائل اليقينية، فذَكَرَ الْقَسَمَ تأكيداً لما تقدم، لا سيما أنَّ إثبات القضية بالحلف، طريقة مألوفة عند العرب، ولما أقسم على التوحيد، ذكر عقبيه ما هو الدليل وهو قوله: ﴿رب السماوات﴾ الآية كبرهان على قدرته ووحدانيته.

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب للقسم، والجملة تحقيق للحق الذي هو التوحيد.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ هو البرهان الناطق، فإن وجودها وانتظامها، على هذا النمط البديع، من أوضح دلائل وجود الصانع، وعلمه، وقدرته، ووحده، والمراد بالمشارك مشارق الشمس في السنة، وهي ثلاث مائة وستون، تشرق كل يوم في واحد، وبحسبها تختلف المغارب، ولذا اكتفى بذكرها مع أن الشروق أدل على القدرة، وأبلغ في النعمة، وأما قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِينَ وَرَبُّ الْمَغْرِبِينَ﴾ فالمراد بهما مشرقا الصيف والشتاء، ومغرباهما.

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾.

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا﴾ أي القريبة منكم ﴿بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾ فإن الكواكب بأنفسها، وأوضاع بعضها من بعض زينة، والإنسان إذا نظر في الليلة

المظلمة إلى السماء، ورأى هذه الكواكب، مشرقة متلألئة على سطح أزرق، أبصر غاية الجمال والزينة.

﴿ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ ﴾ .

﴿ وَحِفْظًا ﴾ معطوف على زينة باعتبار المعنى، كأنه قيل: إنا خلقنا الكواكب، زينةً للسماء، وحفظاً ﴿ مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ أي خارج عن الطاعة متمرد على ربه، وهو أخبث الجن وأشرسه، لأن الجن فيهم المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، والمارد أخبث أقسام الجن.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ ﴾ .

﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ﴾ أصل «يَسْمَعُونَ» يتسمعون، فأدغمت التاء في السين وشددت، والتسمع ضمَّن معنى الإصغاء، يقال سمعتُ حديثه، وإلى حديثه، المعدَّى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدَّى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك، والملاأ الأعلى الملائكة، لأنهم يسكنون السماوات، والإنسُ والجنُّ هم الملاأ الأسفل، لأنهم سكان الأرض، أي لا يطلبون السماع والإصغاء إليهم ﴿ وَيُقَدِّفُونَ ﴾ أي يرمون ﴿ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ من جوانب السماء، إذا قصدوا الصعود إليها.

﴿ دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِْبٌ ۝٩ ﴾ .

﴿ دُحُورًا ﴾ أي للدحور، وهو الطرد عن السماع مع الإهانة ﴿ وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِْبٌ ﴾ أي عذاب شديد دائم، وهو عذاب الآخرة، ففي الدنيا الرجم، وفي الآخرة السعير.

﴿ إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ ﴾ .

﴿ إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخَطْفَةَ ﴾ الخطف : الاختلاس، والمراد اختلاس كلام

الملائكة مسارقة، يعني أخذ شيء من كلامهم بسرعة ﴿فَأَتْبَعُهُ شَهَابٌ﴾ أي تبعه ولحقه، والشهاب ما يرى كأن كوكباً انقض من السماء ﴿ثَاقِبٌ﴾ أي مضيء في الغاية، كأنه يثقب الجوّ بضوئه، ولا يقال: إن الشيطان من النار فلا يحترق، لأنه ليس من النار الصّرف، كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص، مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها.

﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (١١).

﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ﴾ أي سل أهل مكة ﴿أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي أقوى خلقة أو أصعب خلقاً وأشقه؟ ﴿أَمْ مَن خَلَقْنَا﴾؟ من الملائكة والسماء والأرض؟ ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ لاصق، لزج، وهذه شهادة عليهم بالضعف، لأن ما يصنع من الطين، غير موصوف بالصلابة والقوة، وقد علموا أن الإنسان الأول إنما تولد منه، لاعترافهم بقصة آدم عليه السلام، وشاهدوا تولد كثير من الحيوانات منه، ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب، وهما باقيان، وقدرة الفاعل ذاتية، لا تتغير، فمن أين استنكروا أن يُخلقوا من تراب مثله، حيث قالوا: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (١٢).

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرة الله تعالى، على خلق هذه الخلائق العظيمة، وإنكارهم البعث، وقيل: عَجِبَ النبي ﷺ أنه كان يظن أن كل من يسمع القرآن، يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن وسخروا منه، عجب من ذلك ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من تعجبك وتقيرك للبعث والنشور.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ (١٣).

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي دأبهم المستمر أنهم إذا وُعطوا بشيء من المواعظ ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا يتعظون، لغاية بلادتهم، وقصور فكرهم، والقوم كانوا

يستبعدون الحشر، إلى حيث كانوا يسخرون ممن يصدّق به، فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين: أحدهما أن يُذكر الدليل الدال على صحة الحشر، فدُكر الدليل، ولكنهم لشدة بلادتهم وجهلهم، لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان، والوجه الثاني: أن يثبت الرسول ﷺ رسالته بالمعجزات، لأولئك المنكرين، ولم ينتفعوا بهذا الطريق أيضاً، ولهذا عقبه بقوله سبحانه:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ (١٤).

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أي معجزة تدل على صدق القائل بالبعث ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي يبالغون في السخرية، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها، لأنهم ألقوا السخرية والتكذيب.

﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٥).

﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا ﴾ أي ما هذا الذي نراه من الآيات الباهرة ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر سحريته، واضح أنه عمل ساحر، لا يخفى على أحد أمره.

﴿ آءِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا آءِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (١٦).

﴿ آءِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ﴾ أي كان بعض أعضائنا تراباً، وبعضها عظماً نخرة ﴿ آءِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي أنبعث بعد موتنا وفنائنا؟ وتكرير الهمزة والتصدير بيان واللام، لتأكيد الإنكار.

﴿ أَوَّابًا أَوْنَا الْأَوْلُونَ ﴾ (١٧).

﴿ أَوَّابًا أَوْنَا الْأَوْلُونَ ﴾ أي أيعث أيضاً آباؤنا الأولون؟ أي الأقدمون، فمرادهم زيادة الاستبعاد، بناءً على أنهم أقدم، فبعثهم أبعد على زعمهم.

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ نَعَمْ ﴾ ستبعثون ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي صاغرون وإنما اكتفى به في الجواب، لقيام المعجزات على صدق المخبر عن وقوعه، فكان قوله: ﴿ نَعَمْ ﴾ دليلاً قاطعاً على الوقوع.

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي تستصعبون البعثة، وما هي إلا صيحة واحدة، ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور، من زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة، لأنها تزجر الموتى عن الرقود في القبور ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ قائمون من مراقدهم أحياء ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ أي يبصرون كما كانوا قبل الموت.

﴿ وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي المبعوثون ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي ياهلاكنا أحضر فهذا أوان حضورك ﴿ هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أي اليوم الذي نُجازى فيه بأعمالنا.

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكْذِبُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكْذِبُونَ ﴾ هو كلام الملائكة جواباً لهم، بطريق التوبيخ، أي هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي كنتم تسخرون منه وتكذبون به.

﴿ آخِشُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿ آخِشُوا ﴾ اجمعوا ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي أشركوا بالله، وهو خطاب من

الله تعالى للملائكة ﴿وَأَزْوَجَهُمْ﴾ أي أشباههم، ونظراءهم، كعابد الصنم مع عبده، وأهل الخمر مع أهل الخمر، والزاني مع الزناة ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام ونحوها، زيادةً في تحسيرهم، وتخجيلهم، وفيه دليل على أن ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم المشركون ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي عرفوهم طريق جهنم، ووجهوهم إليها، وفيه تهكم بهم، لأن الهداية تكون إلى السعادة والنعيم، لا إلى دركات الجحيم!! .

﴿وَقَفُّوهُمْ إِنَّمَا مَسْئُولُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿وَقَفُّوهُمْ﴾ احبسوهم في الموقف، عند صراط الجحيم ﴿إِنَّمَا مَسْئُولُونَ﴾ أي سَيَسْأَلُونَ عن جرائمهم والوقوف ليس لعفو عنهم، ولا ليستريحوا، بل ليسألوا عما ينطق به قوله تعالى:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي يقال لهم بطريق التوبيخ: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً، كما كنتم تزعمون في الدنيا؟ وهو وقت إنجاز العذاب، وشدة الحاجة إلى النصر.

﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي منقادون، خاضعون لظهور عجزهم، وانسداد الحيل عليهم.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ وَأَبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ هم الأتباع والرؤساء، ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً، سؤال توبيخ بطريق الخصومة.

﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ (٢٨).

﴿ قَالُوا ﴾ أي الأتباع للرؤساء ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا ﴾ في الدنيا ﴿ عَنِ الْيَمِينِ ﴾ أي عن أقوى الوجوه بالقوة والإجبار، تزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الهدى، كأنكم تنفعوننا، فتبعناكم.

﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٩).

﴿ قَالُوا ﴾ أي الرؤساء أو القراء ﴿ بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي لم نمنعكم عن الإيمان، بل لم تؤمنوا باختياركم مع تمكنكم منه، وآثرتم الكفر عليه.

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ (٣٠).

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ من قوة وتسلط عليكم، نسلبكم به اختياركم ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ أي مختارين للطغيان.

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ ﴾ (٣١).

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا ﴾ أي ثبت علينا ﴿ قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(١) ﴿ إِنَّا لَذَٰبِقُونَ ﴾ أي العذاب الذي ورد به الوعيد.

﴿ فَأَعْوَبْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ (٣٢).

(١) سورة ص، آية: ٨٥.

﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ أي فدعوناكم إلى الغيِّ، فاستجبتم لنا باختياركم ﴿ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ ﴾ فلا عتاب علينا في تعرضنا لإغوائكم.

﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (٣٣).

﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ أي الأتباع والمتبوعين ﴿ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ حسبما كانوا مشتركين في الغواية والضلالة، الجميع في نار جهنم.

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٤).

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الفعل الذي تقتضيه الحكمة التشريعية ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ المتناهين في الإجرام، وهم المشركون، وهذا يدل على أن لفظ «المجرم» المطلق، مختص في القرآن الكريم بالكافر، لقوله سبحانه:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣٥).

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ بالدعوة والتلقين ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن القبول، وعن قول «لا إله إلا الله» ويعظم عليهم أن يتركوا الأصنام والأوثان.

﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا نَتَارَكُوا ءِالِهَتَنَا لَشَاعِرٍ تَجْنُونِ ﴾ (٣٦).

﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا نَتَارَكُوا ءِالِهَتَنَا لَشَاعِرٍ تَجْنُونِ ﴾؟ يعنون الرسول ﷺ، قاتلهم الله أنى يؤفكون، قال الله تعالى رداً عليهم:

﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٧).

﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي ليس الأمر كما يفترون، بل جاءهم محمد عليه السلام بالتوحيد، والإسلام، الذي هو الحقُّ القاطع، الذي أجمع عليه كافة الرسل عليهم السلام، فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة؟.

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ (٣٨).

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بما فعلتم من الإشراك والتكذيب والاستكبار ﴿ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ والالتفات لإظهار الغضب عليهم.

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٩).

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا، من الشرك والتكذيب.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤٠).

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع من ضمير ذائقوا، والمعنى: إنكم لذائقوا العذاب، لكنَّ عباد الله المخلصين ليسوا كذلك.

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ (٤١).

﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إليهم، للإيذان بأنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص، عن عداهم ﴿ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ أي معلوم الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة، ونحوها من نعوت الكمال.

﴿ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ (٤٢).

﴿ فَوَاكِهُ ﴾ أي ذلك الرزق فواكه، وتخصيصها بالذكر، لأن أرزاق أهل

الجنة كلها فواكه، أي ما يؤكل فيها لمجرد التلذذ، لا لدفع الجوع، لأنهم مستغنون عن القوت، لكون خلقتهم محكمة، محفوظة من التحلل، المحوج إلى البذل ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ عند الله تعالى لا يلحقهم الهوان، ويصل إليهم رزقهم بغير تعب ولا نصب.

﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٤٣)

﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أي في جنات ليس فيها إلا نعيم.

﴿ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (٤٤)

﴿ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ أي متواجهين، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض، لدوام الأناج والسرور.

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ (٤٥)

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ في الخدمة ﴿بِكَأْسٍ﴾ بإناء فيه خمر، أو بخمر، فإن الكأس تطلق على نفس الخمر، وعن الأخفش «كل كأس في القرآن فهي الخمر» ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي كائنة من شراب معين، وهو الجاري على وجه الأرض، تراها العيون، وصف تعالى به الخمر، لأنها تجري في الجنة في أنهار، كما يجري الماء، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ (١).

﴿ بَيضَاءَ لَّدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٤٦)

﴿ بَيضَاءَ ﴾ خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ﴿لَّدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ وصفها بلذة للمبالغة، كأنها نفس اللذة، لأن من شربها بليتذ بها لذّة غامرة.

(١) سورة محمد، آية: ١٥.

﴿ لَا فِيهَا عَوَلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْفُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿ لَا فِيهَا عَوَلٌ ﴾ أي غائلة كما في خمور الدنيا، ومن مفسد خمر الدنيا صداع الرأس، والقيء، ووجع المعدة، وكثرة البول، والسكر ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْفُونَ ﴾ أي يسكرون، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله، أفرد هذا بالنفي مع اندراجها فيما قبله، لما أنه من معظم مفسد الخمر.

﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْإِطْرَفِ عَيْنٌ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْإِطْرَفِ ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم ﴿ عَيْنٌ ﴾ نجل العيون، والنَّجَلُ: سعة العين أي حسان الأعين عظامها، مع غاية الحسن والجمال.

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أي مصون ومستور، شبهن ببيض النعام، لأنها تكنها بالريش من الريح والغبار، فيكون لونها أبيض مخلوطاً بأدنى صفرة، ويقال: هذا أحسن ألوان الأبدان^(١).

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ .

(١) أخبر تعالى عن نساء أهل الجنة، أنهن عفيفات، قصرن أعينهن عن النظر إلى غير أزواجهن، وهنَّ مع العفة واسعات العيون، جميلات اللون، كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه، وهذا قول ابن عباس، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ والغرض أنهن مع هذا الجمال الباهر، مصونات كالذُرِّ في أصدافه، مع رقة، ولطف، ونعومة، اللهم لا تحرمنا نعيم الجنة، وتمعنا بالحوار العين، يا أرحم الراحمين.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ ﴾ يعني أهل الجنة ﴿ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يتحادثون عمّا جرى لهم وعليهم في الدنيا، كما قال القائل:
وما بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ في تضاعيف محاوراتهم ﴿ إِنِّي كَانَ لِي ﴾ في الدنيا ﴿ قَرِينٌ ﴾ أي صاحب لا يؤمن باليوم الآخر.

﴿ يَقُولُ أَهْلَكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿ يَقُولُ ﴾ لي على طريق التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان، والتصديق بالبعث ﴿ أَهْلَكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ﴾؟ أي بالبعث، ويقول تعجباً.

﴿ أءَاذًا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أءَا لِمَدِينُونَ ﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿ أءَاذًا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أءَا لِمَدِينُونَ ﴾؟ أي لمبعوثون ومجزيون؟ من الدّين بمعنى الجزاء، يقول هذا على سبيل الاستهزاء والإنكار.

﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّظَلِّعُونَ ﴾ ﴿٥٤﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ أي ذلك القائل، بعدما حكى لجلسائه مقالة قرينه في الدنيا ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُّظَلِّعُونَ ﴾؟ أي إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين، يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاها، بمعنى هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار، لأريكم ذلك القرين؟.

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿٥٥﴾ .

﴿ فَاطَّلَعَ ﴾ عليهم ﴿ فَرَءَاهُ ﴾ أي قرينه ﴿ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ أي في وسطها.

﴿ قَالَ تَأَلَّهَ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ .

﴿ قَالَ ﴾ أي القائل لقرينه شامتاً به ﴿ تَأَلَّهَ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ ﴾ أي والله لقد قاربت أن تهلكني بإغوائك لي .

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ۞ .

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي ﴾ بالهداية والعصمة ﴿ لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أي من الذين أحضروا العذاب، معك في النار، ثم يخاطبه مستهزئاً ساخرأً، كما كان الكافر يسخر منه في الدنيا فيقول له :

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَمِيَّتٍ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٥٩﴾ ۞ .

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَمِيَّتٍ ﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ؟ أي هل لا تزال على اعتقادك، بأننا لن نموت إلا مودة واحدة، وأنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء؟ وهو أسلوب ساخر لاذع، يظهر فيه الشفني من ذلك الصديق الكافر، الذي كان يسخر منه في الدنيا .

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ۞ .

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي الأمر العظيم الذي نحن فيه ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي هو السعادة الكاملة، والفوز بالكرامة، التي لا يوازيها شيء من أمور الدنيا ونعيمها .

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ۞ .

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ أي يقول تعالى : لنيل هذا المرام الجليل، يجب أن يعمل العاملون، لا للحظوظ الدنيوية .

﴿ أَدْلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ أَدْلِكَ ﴾ أي ذلك الرزق المعلوم ﴿ خَيْرٌ نُزُلًا ﴾ أي خير ضيافة وتكريماً ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ﴾؟ أم شجرة الزقوم التي في جهنم؟ والأسلوب أسلوب تهكم وسخرية، لأن النُّزْل في اللغة: الضيافة التي تقدّم للضيف، وأي ضيافة لمن يكون طعامه الزقوم؟ والزقوم طعام أهل النار، وهي شجرة خبيثة مرة، كريهة الرائحة؟! .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً ﴾ أي محنة وعذاباً ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ في الآخرة، وابتلاء في الدنيا، فإنهم لما سمعوا أنها في النار استهزؤوا، وقالوا: كيف يمكن ذلك، والنار تحرق الشجر؟ وصارت تلك الشبهة سبباً لتماديهم في الكفر، ولم يعلموا أن من قدر على أن يخلق الزبانية ويمنع النار عن إحراقهم، أقدّر على خلق الشجر فيها، وحفظه من الإحراق!! ثم قال تعالى:

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ منبتها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيْطَانِ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ طَلَعَهَا ﴾ ثمرها سمي طلعاً لطلوعه أول الإثمار ﴿ كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيْطَانِ ﴾ في تناهي القبح والهول، وهو تشبيه بالمخيل، كتشبيه الفائق في الحسن بالملك، وتشبيه القبيح بالصورة بالشیطان، والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت: كأنه شيطان، لما استقرّ في الأذهان، من قبح صورة الشيطان.

﴿فَاتِهِمْ لَأَكْلُونَ مِنْهَا فَمَا تَلَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ .

﴿فَاتِهِمْ لَأَكْلُونَ مِنْهَا﴾ أي من الشجرة أو من طلعتها ﴿فَمَا تَلَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ لغلبة الجوع، أو للقسر على أكلها وإن كرهوها، ليكون ذلك باباً من العذاب.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهِا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿٦٧﴾ .

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهِا﴾ أي بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش، وطال استسقاؤهم كما ينبىء عنه كلمة «ثم» ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الشوب اسم ما يشاب به أي لشراباً من غساق، أو صديد، مشوباً بماء الحميم، يقطع أمعاؤهم، كما قال تعالى ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ .

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٨﴾ .

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعَهُمْ﴾ أي مصيرهم ﴿لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي إلى دركاتهما، فإن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولها، وهذا يدل على أن الحميم خارج عن الجحيم، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب، كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يوردون إلى الجحيم للاحتراق فيها.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ ﴿٦٩﴾ .

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ أي وجدوا ﴿آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب بتقليد الآباء، أي وجدوهم ضالين في نفس الأمر.

﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْعَوْنَ﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْعَوْنَ﴾ يسرعون من غير أن يتدبروا أنهم على الحق،

أو على الباطل، والإهراع: الإسراع، ولو لم يوجد في القرآن آية، غير هذه الآية، في ذم التقليد لكفى.

﴿ وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل قومك ﴿ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ من الأمم

السالفة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ أي أنبياء أولي عدد كثير، وذوي شأن خطير، بينوا لهم بطلان ما هم عليه، وأنذروهم عاقبته الوخيمة، ولكن الضالين لم يلتفتوا إلى الإنذار.

﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ من الهول والفظاعة، والخطاب لكل أحد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم، أي ألم نهلكهم إهلاكاً فظيعاً، ونجعلهم عبرة للعباد؟ .

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي إلا الذين آمنوا، بتوفيقهم للإيمان والعمل الصالح، وأخلصوا لله دينهم، فأولئك نجوا من العذاب، وهذه الآية لتسلية النبي ﷺ، ليكون له أسوة بالرسول، حتى يصبر كما صبروا، ويستمر على الدعوة إلى الله .

﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نوحاً فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا﴾ أي دعانا مستغيثاً، واللام جواب قسم محذوف، وكذا ما في قوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي وبالله لقد دعانا نوح، حين يش من إيمانهم فأجبناه أحسن الإجابة، فوالله لنعم المجيبون نحن، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص، سبب لحصول الإجابة، والجمع دليل العظمة والكبرياء.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦).

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي من الغرق والطوفان، الذي عمّ قومه الكافرين.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (٧٧).

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ أي الذين ركبوا معه في السفينة من أولاده وأتباعه المؤمنين، وكل من سواهم هلكوا وفنوا، وعن سمرّة بن جندب، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: «هم سام، وحام، ويافث» (١).

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨).

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة، وهي:

﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩).

﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ﴾ أي أبقينا له ثناءً جميلاً، فيمن بعده من الأنبياء

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٣٠ وقال: حديث حسن غريب، وفي رواية أخرى «سام» أبو العرب، و«حام» أبو الحبش، و«يافث» أبو الروم.

والأمم يسلمون عليه تسليماً ﴿ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ أي باقية ومستمرة هذه التحية
أبدأ في العالمين .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٨٠)

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لما فعل به من التكرمة السنية، من
إجابة دعائه، وإبقاء ذريته، وتسليم العالمين عليه، أي مثل ذلك الجزاء
الكامل، نجزي الكاملين بالإحسان .

﴿ إِنَّمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨١)

﴿ إِنَّمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي كان مخلصاً في العبودية لله، كامل الإيمان
واليقين، وفي هذا إظهار لجلالة قدر الإيمان .

﴿ ثُمَّ أَعْرَقْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ (٨٢)

﴿ ثُمَّ أَعْرَقْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ وهم كفار قومه .

﴿ وَآتَ مِنْ شِيعَتِهِ لِبْرَاهِيمَ ﴾ (٨٣)

﴿ وَآتَ مِنْ شِيعَتِهِ لِبْرَاهِيمَ ﴾ أي وممن شايعه في أصول الدين،
وسار على منهاجه وسنته، إبراهيم عليه السلام وما كان بينهما، إلا نبیان:
هود، وصالح عليهما السلام، وكان بين نوح وإبراهيم عليهما السلام ألفان
وستمائة وأربعون سنة .

﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٨٤)

﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ ﴾ أي حين جاء ربه ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ خالص من الشرك،

والشك، ومن كل دنس المعاصي، كالغل، والغش، والحقْد، والحسد،
يحب للناس ما يحب لنفسه.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿٨٥﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾؟ أي شيء تعبدونه؟ .

﴿ أَيْفَ كَأَإِلَهِةٍ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿ أَيْفَ كَأَإِلَهِةٍ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾؟ أي أتريدون آلهة من دون الله للإفك
والكذب والزور؟ .

﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي بمن هو حقيق بالعبادة، لكونه رباً
للعالمين، فما ظنكم به، ماذا يفعل بكم، بعد أن أشركتم به وعبدتم غيره؟
هل يترككم بدون عقاب؟ .

﴿ فَظَنَّرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿ فَظَنَّرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ حين سأله ألا تخرج معنا إلى عيدنا؟ فنظر
في النجوم.

﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ﴿٨٩﴾ .

﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أي مشارف للسقم، وهو الطاعون، وكان أغلب
الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى، ويفرون من المطعون، وأراد عليه
السلام القول: إني سقيم القلب لكفركم، كما يقال: أنا مريض القلب من
كذا فهربوا منه وتركوه وذلك قوله تعالى:

﴿ فَنَوَلُّوْا عَنْهُ مُدْرِبِيْنَ ﴾ ﴿٩١﴾ .

﴿ فَنَوَلُّوْا عَنْهُ مُدْرِبِيْنَ ﴾ أي هاربيين مخافة العدو .

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُوْنَ ﴾ ﴿٩٢﴾ .

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ ﴾ أي ذهب إليها في خفية ﴿ فَقَالَ ﴾ للأصنام استهزاء ﴿ أَلَا تَأْكُلُوْنَ ﴾؟ أي من الطعام الذي بين أيديكم؟ وكانوا يضعون الطعام أمام أصنامهم لتبارك لهم فيه .

﴿ مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُوْنَ ﴾ ﴿٩٣﴾ .

﴿ مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُوْنَ ﴾ أي ما لكم لا تجيبوني على سؤالي؟ .

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِيْنِ ﴾ ﴿٩٤﴾ .

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فمال مستعلياً عليهم ﴿ ضَرْبًا بِالْيَمِيْنِ ﴾ أي يضربهم ضرباً شديداً بيده اليمنى، لأن اليمين أقوى الجارحتين، وقوة الآلة تقتضي قوة الفعل، وقيل: ﴿ باليمين ﴾ أي بسبب الحلف وهو قوله: ﴿ وتالله لا أكيدن أصنامكم ﴾ .

﴿ فَأَقْبَلُوْا إِلَيْهِ يَرْفُوْنَ ﴾ ﴿٩٥﴾ .

﴿ فَأَقْبَلُوْا إِلَيْهِ ﴾ إلى إبراهيم عليه السلام، بعدما رجعوا فرأوا أصنامهم مكسرة، وبحثوا عن كاسرها فظنوا أنه هو ﴿ يَرْفُوْنَ ﴾ أي يسرعون من زفيف النعام، وهو ابتداء عدوها .

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُوْنَ مَا نَنْحِتُوْنَ ﴾ ﴿٩٥﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ أي بعدما أتوا به عليه السلام وجرى بينه وبينهم من المحاورات ما جرى ﴿ اتَّعَبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي ما تنحتونه من الأصنام؟.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٦).

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي والله خلقكم وخلق أعمالكم، وهو دليلنا في خلق الأفعال، أي الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلم تعبدون غيره؟.

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُمُ بَيْتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ (٩٧).

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُمُ بَيْتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ في النار الشديدة، المستعرة المحرقة، وهي شدة التاجع.

﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (٩٨).

﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ لَمَّا فهرهم بالحجة قصدوا ما قصدوا، لئلا يظهر عجزهم للعامة ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أي الأذلين، يبطل كيدهم، يجعل النار عليه برداً وسلاماً، فصار هو الغالب عليهم، وهم الأذلاء المدحورون.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ (٩٩).

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أي مهاجر إلى حيث أمرني ربي، لأتجرد لعبادته تعالى، قاله بعد خروجه من النار ﴿ سَيِّدِينَ ﴾ أي إلى ما فيه صلاح ديني، ودلت الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء يجب المهاجرة منه، فلَمَّا قدم عليه السلام الأرض المقدسة، سأل ربّه فقال:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٠٠).

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي بعض الصالحين، يعينني على الدعوة، ويؤنسني في الغربة، يعني الولد، لأن لفظ الهبة خاص به.

﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلْمٍ حَلِيمٍ ﴾ .

﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلْمٍ حَلِيمٍ ﴾ فإنه صريح في المبرر به، وعين ما استوهبه، ولقد جمع فيه بشارات ثلاث: بشارة أنه غلام، وحليم، وأنه يبلغ سن الرشد لأن الصغير لا يوصف بذلك.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبُنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَتَأْتِيَ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ ﴾ أي فوهب الله له الولد فنشأ، فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحواله، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ يَبُنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ أي أرى هذه الصورة بعينها، وقيل: إنه رأى ليلة التروية، كأن قائلًا يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله تعالى، فمن ثمة سمي يوم عرفة، ثم رأى مثل ذلك في الليلة الثالثة، فهمم بنحره فسمي اليوم يوم النحر، والغلام الذي أمر بذبحه هو إسماعيل عليه السلام، إذ هو الذي وهب له إثر المهاجرة، وقوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لا يحسن إلا عند عدم الولد، فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول، وإسماعيل متقدم في الوجود على إسحق، فثبت أن المخاطب هو إسماعيل، ومما يدل عليه قوله سبحانه في سورة هود: ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ . فكيف يؤمر بذبح إسحق وقد وعده بالنافلة أي ولدٍ ولدٍ فيه؟ ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾؟ أي فانظر في الأمر ما رأيك فيه؟ وإنما شاوره فيه وهو أمر محتوم، ليعلم ما عنده فيما نزل، ويكتسب المثوبة والثناء الحسن في الدنيا، وليظهر صبره في طاعة

الله عزَّ وجلَّ، وقد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم ﴿قَالَ يَا أَبَتِ أَفَعَلَّ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما تؤمر به، وقد علم أن الأنبياء لا يقدمون على مثل ذلك إلا بالأمر ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على الذبح، وإنما علَّق الأمر بمشيئة الله تعالى، على سبيل التبرك.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (١١٣).

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي استسلما لأمر الله تعالى، وانقادا له، يقال: سلَّم لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي صرعه على شقه، فوقع جبينه على الأرض، وهو أحد جانبي الجبهة، وكان ذلك عند الصخرة من منى.

﴿وَنَدَيْنَهُ أَنْ يَتَّابِرْهِمُ﴾ (١١٤).

﴿وَنَدَيْنَهُ أَنْ يَتَّابِرْهِمُ﴾ بالعزم على الإتيان بالمأمور به، أي قد حققت ما أمرناك به في المنام، والسبب في هذا التكليف، إظهار كمال طاعة إبراهيم، فلما ظهر منه كمال الطاعة، ومن ولده كمال الانقياد، قال تعالى له:

﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥).

﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي كما جزينا هذين المحسنين، فكذلك نجزي كل المحسنين، وهو تعليل لتفريغ تلك الكربة بإحسانهما.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمِينُ﴾ (١١٦).

﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْبَيْنُ ﴾ أي الابتلاء البين، الذي يتميز فيه المخلص من غيره، والمحنة البينة إذ لا شيء أصعب من مثل هذا التكليف الشاق.

﴿ وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

﴿ وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ ﴾ بما يذبح بدله فيتم به الفعل ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أي عظيم الجثة سمين، يفدي به الله نبياً ابن نبي، من نسله سيد المرسلين ﷺ، وكان كبشاً من الجنة.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ سَلَّمَ عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * أي مقضياً بنبوته، مقدراً كونه من الصالحين، وفي ذكر الصلاح بعد النبوة، تعظيم لشأنه، وإيماء إلى أنه الغاية لها، لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل^(١).

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ على إبراهيم في أولاده ﴿ وَعَلَى إِسْحَاقَ ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل، وأفضنا عليهما بركات الدنيا والدين ﴿ وَمِنْ ﴾

(١) فإن قيل كيف قال تعالى: ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ مع أن مرتبة الرسل فوق مرتبة المؤمنين؟ فالجواب: تنبيهاً لنا على جلالة قدر الإيمان وشرفه، وترغيباً في تحصيله والثبات عليه.

ذُرِّيَّتَيْهِمَا مُحْسِنٌ ﴿ في عمله بالإيمان والطاعة ﴿ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ مُبِينٌ ﴾ ظاهر ظلمه، وفيه تنبيه على أن النسب لا تأثير له في الهداية والضلالة، وأن الظلم في أعقابهما لا يعود إليهما بنقيصة.

﴿ وَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

﴿ وَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ أي أنعمنا عليهما بالنبوة، وغيرها من النعم الدينية والدنيوية.

﴿ وَبَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ .

﴿ وَبَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ هو تسلط آل فرعون عليهم بألوان العذاب.

﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ .

﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ أي هما وقومهما على عدوهم ﴿ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ عليهم، بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين.

﴿ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٢١﴾ ﴾ .

﴿ وَءَاتَيْنَاهُمَا ﴾ بعد ذلك ﴿ الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي البليغ في البيان والتفصيل، وهو التوراة، التي أنزلها الله هدى لبني إسرائيل.

﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا ﴾ بذلك ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي الطريق الموصل إلى الحق والصواب، بما فيه من الأحكام.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ ﴾ * سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ﴿ مرّ تفسيراها .

﴿ وَإِنَّ إِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ إِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال أكثر المفسرين هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقال محمد بن إسحاق: هو إياس بن ياسين، بن فنحاص، بن العيزار، من نسل هرون عليه السلام.

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿١٢٤﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تخافون عذاب الله في عبادتكم غيره؟ .

﴿ أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ ﴿١٢٥﴾ .

﴿ أَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أتعبدونه، وتطلبون الخير منه، وهو اسم صنم لأهل بعلبك ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾؟ أي وتركون عبادة ربكم أحسن الخالقين؟ .

﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى ﴾ ﴿١٢٦﴾ .

﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى ﴾ أي الذي هو خالقكم وخالق آبائكم من قبلكم؟ والتعرض لربوبيته تعالى لأبائهم، لتأكيد إنكار تركهم لعبادة الله تبارك وتعالى .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ ﴾ بسبب تكذيبهم ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي في العذاب .

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمَ عَلَيَّ إِلَى يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ .

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَيَّ إِلَى يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ﴾ قرأ أي تركنا عليه الشفاء العاطر في الأمم بعده، سلام منّا على إلياس وآله المؤمنين الطيبين، نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين، والباقون إلياسين، والمراد في القراءتين إلياس، قال الزجاج: كما قال ميكال، وميكائيل، كذلك يقال إلياس، وإلياسين .

﴿ وَإِنَّ لُوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ بَعَثْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ لُوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِذْ بَعَثْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿ ﴾ أي أهلكتناهم أشد الإهلاك، حيث قلبنا ديارهم، فجعلنا عاليها سافلها. وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، ولفظ التدمير يشير إلى أشد أنواع الإهلاك وأفظعه .

﴿ وَإِنَّكُمْ لَنْمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَنْمُرُونَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على منازلهم في متاجرهم إلى الشام، فإن سدوم في طريقهم ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾؟ داخلين في الصباح .

﴿وَبِالنِّيلِ أَفْلَاتَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾ .

﴿وَبِالنِّيلِ﴾ أي ومساء، أو نهاراً وليلاً ﴿أَفْلَاتَعْقِلُونَ﴾ أي أتشاهدون ذلك فلا تعقلون؟ حتى تعتبروا به، وتخافوا أن يصيبكم ما أصابهم؟ وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام، لأنه تعالى سلّم في آخر السورة على جميع الأنبياء المرسلين في قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فأغنى هذا عن السلام عليهما.

﴿وَلِإِن يُوَسَّسْ لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ .

﴿وَلِإِن يُوَسَّسْ لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ ﴿أي هرب، وأصله الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه، بغير إذن ربه، حسن إطلاقه عليه﴾ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ ﴿أي المملؤ بالرجال والمتاع.

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ ﴿١٤١﴾ .

﴿فَسَاهَمَ﴾ أي فقارع أهله ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي فصار من المغلوبين بالقرعة، روي أنه عليه السلام لما وعد قومه بالعذاب، فتأخر عنهم، خرج من بينهم، قبل أن يأمره الله تعالى، فركب السفينة فوقفت، فقالوا: فيها عبد أبق، وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها أبق لم تجر، فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فألقوه في البحر.

﴿فَالنَّمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿١٤٢﴾ .

﴿فَالنَّمَةُ الْحَوْتُ﴾ أي فابتلعه حوت عظيم الجثة ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي وهو آتٍ بما يُلام عليه.

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، مدة عمره، أو في بطن الحوت .

﴿ لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ .

﴿ لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لبقني في بطن الحوت إلى يوم القيامة، يوم البعث والنشور، وفيه حث على الإكثار من الذكر، فمن أقبل على الله في السراء، أخذ بيده عند الضراء ومكث في بطن الحوت ثلاثة أيام، قاله مقاتل، وقال الحسن: لم يلبث إلا قليلاً .

﴿ فَبَدَنَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ .

﴿ فَبَدَنَهُ بِالْعَرَاءِ ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه، بالمكان الخالي عما يغطيه، من شجر أو نبت، روي أن الحوت سار في البحر رافعاً رأسه، يتنفس فيه يونس، ويسبح الله، حتى انتهى إلى البر، فلفظه سالماً، لم يتغير منه شيء^(١) ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ مما ناله، قيل: صار بدنه كبذن الطفل حين يولد، من حرارة جسم الحوت .

﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ .

(١) سبب ذلك أن يونس عليه السلام ضاق صدره بتكذيب قومه له، فأنذرهم بعذاب قريب، وغادرهم مغاضباً لهم لأنهم كذبوه، فقاده الغضب إلى شاطئ البحر، حيث ركب سفينة مشحونة، فناوتها الرياح والأمواج في وسط البحر، فقال الملاحون: ههنا عبد أبى من سيده، ولا نجاة لنا إلا بإلقائه لنتجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس عليه السلام، ولم يعرف أهل السفينة قدره وأنه نبي، فألقوه في البحر، فالتقمه الحوت فوراً، قال عطاء: أوحى الله إلى الحوت، أني قد جعلت بطنك له سجنًا، ولم أجعله لك طعاماً، فلذلك بقي سالماً لم يتغير منه شيء!! .

﴿ وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ ﴾ أي فوقه مظلة ﴿ شَجَرَةً مِّن يَّقِينِ ﴾ وهو كل ما ينسبط على الأرض، والأكثر على أنه الدباء، وقيل: التين، وقيل: الموز يستظل بأغصانه، ويفطر على ثماره، وكان ذلك معجزة له، فأنبته الله تعالى لأجله.

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾.

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ هم قومه الذين هرب منهم، وهم أهل نينوا، والمراد إرساله السابق قوله: ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ أي في مرأى الناظر، والمراد به هو الوصف بالكثرة.

﴿ فَتَأْمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾.

﴿ فَتَأْمَنُوا ﴾ أي بعدما عاينوا علائم حلول العذاب، إيماناً خالصاً، وجددوا الإيمان بمحضره ﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ إلى أجلهم المسمى، وهو انتهاء أعمارهم.

﴿ فَاسْتَفْتِهِم أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾.

﴿ فَاسْتَفْتِهِم أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾؟ لما ذكر تعالى أفاصيص الأنبياء الكرام، عاد إلى شرح مذاهب المشركين، وبيان قبحها وسخافتها، فقال: ﴿ فَاسْتَفْتِهِم ﴾ أي فاستخبر قومك على سبيل التوبيخ والتجهيل وسلهم: كيف جعلوا لله جل وعلا البنات ولأنفسهم البنين؟ وذلك في قولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالة أخرى، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وذلك باطل، من وجهين:

الأول: أن العرب يستنكفون من البنت، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه، كيف يمكن إثباته للخالق؟ أي فاستخبرهم أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ، اللاتي هن أوضاع الجنسين، ولهم البنون الذين هم أرفعهما؟ فإن ذلك مما لا يقول به من له أدنى شيء من العقل.

والثاني: إثبات أن الملائكة إناث، وهذا أيضاً باطل، لأن طريق العلم،
 إمّا الحسّ، وإما الخبر، وإمّا النظر، أما الحسّ فمفقود ههنا،
 لأنهم ما شاهدوا كيفية خلق الله للملائكة، وهو قوله تعالى:

﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ (١٥٦)

﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا ﴾؟ أي بل أخلقنا الملائكة الذين هم
 من أشرف الخلائق، وأبعدهم من صفات الأجسام، وردائل الطبائع إناثاً،
 والأنوثة - في نظرهم - من أخس الصفات؟ ﴿ وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ استهزاء
 بهم، وتجهيل لهم، فإن أمثال هذه الأمور، لا تعلم إلاّ بالمشاهدة، إذ لا
 سبيل إلى معرفتها بالعقل، وأما الخبر والنظر فمفقود أيضاً، فثبت بطلان
 زعمهم.

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥٦﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١٥٧)

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي إن المشركين
 من كذبهم وافترائهم، ينسبون إلى الله الذرية والولد، وهم كذبة كفرية،
 يهرفون بما لا يعرفون، والآية مسوقة لإبطال أصل مذهبهم الفاسد، ببيان
 أن مبناه ليس إلاّ الإفك الصريح، والافتراء القبيح.

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ (١٥٧)

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾؟ إثبات لإفكهم، وتقرير لكذبهم، فيما
 قالوا ببيان استلزامه لأمر بيّن الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على
 البنين، أي هل اختار تعالى لنفسه البنات وفضلهن على البنين؟.

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (١٥٤)

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾؟ بهذا الحكم الظالم الذي يقتضي بطلانه بديهياً

العقل.

﴿ أَفَلَا نَذْكُرُونَ ﴾ (١٥٥)

﴿ أَفَلَا نَذْكُرُونَ ﴾؟ أي أتلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه؟.

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٥٦)

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ ﴾؟ أي هل لكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء، بأنّ الملائكة بناته تعالى؟ ضرورة أن الحكم بذلك، لا بدّ له من سند حسّي، أو عقلي، وحيث انتفى كلاهما، فلا بد من سند نقلي.

﴿ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٥٧)

﴿ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي فأتوني بهذا الكتاب المنزل من عند الله إذا كنتم صادقين؟ وفي هذه الآيات من الإنباء عن السخط العظيم، وتسفيه أحلامهم، ما لا يخفى.

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ (١٥٨)

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا ﴾ أي جعل المشركون الفجار بين الله عزّ وجلّ، وبين الجنّة قرابةً ونسباً، حيث زعموا أن الله نكح من الجن، فولدت له الملائكة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ودعواهم محض الكذب والبهتان، ولذلك ردّ تعالى عليهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي وبالله لقد علمت الجنة والشياطين، أن الله يُحضرهم النار، ويعذبهم بها، ولو كانوا منسوبين له تعالى، لَمَا عَذَّبَهُمْ!؟.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾ .

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس، عما يصفه به هؤلاء الظالمون، فالله واحد أحد، فرد صمد، لا شريك له، ولا ذرية، ولا بنين، وليس بينه وبين أحد نسب ولا قرابة.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ ﴿١٦٠﴾ .

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ استثناء منقطع، أي لكن عباد الله المخلصين ينزهون الله عما يصفه به هؤلاء الضالون.

﴿فَأَنكُرُوا مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ .

﴿فَأَنكُرُوا مَا تَعْبُدُونَ﴾ * مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ أي فإنكم ومعبودكم أيها المشركون، لستم بفاتنين عليه تعالى أحداً، أي لستم بقادرين أن تضلوا أحداً من عباد الله، إلا من قضى الله عليه الشقاوة.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٦٣﴾ .

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ أي إلا من هو داخلها، لعلمه تعالى بأنه يصير على الكفر، بسوء اختياره، ويصير من أهل النار لا محالة، وأما المخلصون منهم فأنتم بمعزل عن إضلالهم.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿١٦٤﴾ .

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الجمهور على أنهم الملائكة، وصفوا بذلك أنفسهم للمبالغة في العبودية، للتنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله، لأن مبالغتهم في العبودية، تدل على اعترافهم بالمعبود جل وعلا، أي وما منا مَلَكٌ من الملائكة، إلا وله مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعدها، منزلة

مقصورة عليه لا يتجاوزها، خضوعاً لعظمته، وخشوعاً لهيبته، وتواضعاً لجلاله، والآية ردُّ على من عبد الملائكة، فهم عبيد الله وليسوا شركاء مع الله، فكيف يُعبدون من دون الله؟.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ في مواقف الطاعة، ومواطن الخدمة.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ المقدِّسون لله سبحانه وتعالى، عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه.

﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾

﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴾ إن هي المخففة وضمير الشأن محذوف واللام هي الفارقة، أي إن الشأن كانت قريش تقول قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام.

﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأُولِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأُولِينَ ﴾ أي كتاباً من كتب الأولين، كالتوراة والإنجيل.

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴾ أي لأخلصنا العبادة لله تعالى، ولمَّا خالفنا

كما خالف اليهود والنصارى أنبياءهم، وهذا كقولهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِيْدَى الْأُمَمِ﴾ (١).

﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٧٦).

﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ فجاءهم ذكر عظيم، هو أشرف الأذكار، والمهيمن
عليها، وهو القرآن الكريم، فكفروا وكذبوا به، وقالوا عنه أساطير الأولين
﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة كفرهم، وما يحلُّ بهم من الانتقام.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْمُنًا لِّعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٧).

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْمُنًا لِّعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وعدنا لهم بالثُّغرة، والغلبة.

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١٧٨).

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ ولا يقدر انهزامهم في بعض المشاهد، فإن قاعدة
أمرهم، وأساسه الظفر، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء،
فالحكم للغالب، وإن لم ينصروا في الدنيا، نصرُوا في الآخرة.

﴿فَقَوْلًا عَنَّهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (١٧٩).

﴿فَقَوْلًا عَنَّهُمْ﴾ فأعرض عنهم واصبر على ما ينالك يا محمد ﴿حَتَّىٰ
حِينٍ﴾ وهو الموعد لنصرك عليهم وهو يوم بدر، وقيل يوم الفتح.

﴿وَأَبْصَرْتَهُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ﴾ (١٨٠).

(١) سورة فاطر، آية: ٤٢.

﴿ وَأَنْصِرُهُمْ ﴾ على ما ينالهم حينئذٍ من القتل والأسر، وسوء الحال، والمراد بالأمر بإبصارهم: الإيذان بغاية قربه ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ما يقع حينئذٍ وسوف للوعيد، أي فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم بالقرآن، وسخريتهم من الرسول عليه السلام.

﴿ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (١٧٦).

﴿ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي يستعجلون عذاب الله؟.

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (١٧٧).

﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾ العذاب ﴿ بِسَاحِهِمْ ﴾ بفنائهم بعتة، صورته كأنه جيش عرمرم قد هاجمهم، فأناخ بفنائهم، فشنَّ عليهم الغارة، وقطع دابرتهم بالمرّة ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ أي فبئس صباح الكافرين، الذين أنذروا بالعذاب.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ غزا خيبر فلما دخل القرية قال: «الله أكبر، خربت خيبر، إننا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿ فسَاءَ صباح المنذرين ﴾ قالها ثلاث مرات» (١).

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (١٧٨).

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ كرّره تأكيداً للتهديد.

﴿ وَأَنْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧٩).

﴿ وَأَنْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تسليّة لرسول الله ﷺ إثر تسليّة، وتأكيّد

(١) الحديث أخرجه البخاري ٩٠/٢ من فتح الباري.

لوقوع الميعاد، أي انتظرهم وما يبصرونه من أنواع المضار في الدنيا والآخرة، فسوف يبصرون عاقبة كفرهم وتكذيبهم.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٦)

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ تنزيه لله تعالى عن كل ما يصفه المشركون، مما لا يليق بجناب كبريائه ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ والإضافة لاختصاص العزة به تعالى، إذ لا عزة ولا غلبة إلا لله جل وعلا ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يصفه به المشركون من الزوجة والولد.

﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨٧)

﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ تشريف لهم، وإيدان بأنهم سالمون عن كل المكاره، فائزون بجميع المآرب.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٧)

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما أفاض عليهم، وعلى من اتبعهم من النعم، وحسن العاقبة، والغرض منه تعليم المؤمنين أن يقولوه، لما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى، من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه، إذا قام من مجلسه ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(١).
والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة والعافية في الدنيا والآخرة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات»

(١) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً عن علي رضي الله عنه، وانظر الدر المنثور للسيوطي . ٢٩٥/٥

سُورَةُ صَّ

مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿١﴾ .

﴿صَّ﴾ قيل اسم للسورة، وقيل: اسم للحرف، وقيل هو مفتاح اسمه «الصمد»^(١) ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ الواو للقسم، والذكر بمعنى الشرف والنباهة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾^(٢) أي أقسم بالقرآن ذي الشرف الرفيع، وذو الشأن والمكانة الجليلة وجواب القسم محذوف تقديره أقسم بالقرآن إنه لمعجز، وإن محمداً لصادق.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إضراب عن ذلك كأنه قيل: لا ريب فيه

(١) الراجع عند أئمة التحقيق من المفسرين، أن الحروف المقطعة - حروف الهجاء - في أوائل السور الكريمة، إنما وردت للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف التي ينطقون بها، وانظر ما كتبناه حول هذا الموضوع في كتابنا «صفوة التفاسير» ٧/١ .

(٢) سورة الزخرف، آية: ٤٤ .

قطعاً، وليس عدم إذعان الكفرة له، لشائبة ريب فيه، بل هم في استكبار وشقاق لله ولرسوله، ولذلك لا يذعنون له، والتكثير في ﴿عزة وشقاق﴾ للدلالة على شدتهما، أي هم غطرسة وكبرياء، ومعاداة الله ورسوله شديده.

﴿ كَرَّ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَعَلَّاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ كَرَّ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ ﴾ وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم، ببيان ما أصاب مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ والمعنى: وكثيراً أهلكنا من القرون الخالية ﴿فَنَادَوا﴾ عند نزول بأسنا، استغاثة وتوبة، لينجوا من ذلك، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ (١) ﴿وَعَلَّاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي نادوا طلباً للنجاة، والحال أن ليس الحين ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي نجاة، و«لا» هي المشبهة بليس، زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد، وخصت بنفي الأحيان، والمناص: المنجا، والغوث يُقال: ناصه إذا أغاثه.

﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ﴾ أي من أن جاءهم ﴿مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ من جنسهم وهو محمد رسول الله ﷺ، عجبوا من بعثته، وعدوا ذلك أمراً عجيباً، خارجاً عن احتمال الوقوع ﴿وَقَالَ الْكٰفِرُونَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وإيداناً بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولون، إلا المتوغلون بالكفر والفسق ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾ فيما يظهره من الخوارق ﴿كَذٰبٌ﴾ فيما يسنده إلى الله تعالى من الإرسال والإنزال.

﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُّجَابٌ ﴾ ﴿٥﴾ .

(١) سورة المؤمنون، آية: ٦٤.

﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾؟ أي أزعم أن الربَّ المعبود واحد لا إله إلا هو؟ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي بليغ في العجب، والعجب الذي له مثل، والعُجَابُ الذي لا مثل له، فهو أبلغ من العجب، وذلك لأنه خلاف ما أَلْفَوْهُ هم وأبَاؤُهُمْ، الذين أجمعوا على ألوهية الأوثان، وواظبوا على عبادتهم، كابرًا عن كابر، فكان مدار أمور دينهم هو التقليد والاعتیاد، فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجباً بل محالاً، روي أنه لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، شقَّ ذلك على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم، فأتوا أبا طالب، فقالوا أنت شيخنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل إليه أبو طالب يدعوه إلى المجلس، فلما أتى النبي ﷺ، قال له: يا بن أخي هؤلاء قومك، يسألونك العدل فلا تمل كلَّ الميل على قومك، فقال ﷺ: ماذا تسألونني؟ قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلِهتنا، وندعك وإلَهك!! فقال ﷺ: أتعطوني كلمة واحدة، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟ قالوا: نعم وعشرًا، فقال: قولوا: ﴿لا إله إلا الله﴾ فقاموا وقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾^(١)؟.

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَيَّ الْهَيْكَمُ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي من قريش من مجلس أبي طالب، بعدما أسكتهم الرسول ﷺ بالجواب المفحم، وشاهدوا تصلبه في الدين، ويُسُوا مما كانوا يرجونه من المصالحة على الوجه المذكور، أي خرجوا من المجلس يقول بعضهم لبعض: ﴿إِنِ امْشُوا﴾ أي قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا ﴿وَاصْبِرُوا عَلَيَّ الْهَيْكَمُ﴾ أي واثبتوا على عبادتها ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي هذا الذي شاهدناه من محمد، أمر مدبّر، يريد من ورائه

(١) تفسير ابن كثير ٤٧/٤.

أن يصرفكم عن دين آبائكم، لتكون له العزة والسيادة، فاحذروا أن تطيعوه فيفسد عليكم دينكم.

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ .

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ الذي يقوله ﴿ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ أي في الملة النصرانية، التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، أو يريدون ليس هذا في الملة التي كان عليها آباؤنا^(١) ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أي ما هذا ﴿ إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ أي كذب اختلقه من تلقاء نفسه.

﴿ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ .

﴿ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ أي القرآن ﴿ مِنْ بَيْنِنَا ﴾؟ ونحن رؤساء الناس، ومرادهم إنكار كونه منزلاً من عنده عز وجل، كقولهم: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وأمثال هذه المقالات، دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد، والتكالب على حطام الدنيا ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ أي هم في شك من القرآن والوحي، لميلهم إلى التقليد، وإعراضهم عن النظر، في الأدلة المؤدية إلى العلم بحقيقته، فهم مذبذبون بين الأوهام، ينسبونه تارة إلى السحر، وأخرى إلى الاختلاق، ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أي بل لم يذوقوا عذابي، فإذا ذاقوه تبين لهم حقيقته؛ وفي «لَمَّا» دلالة على أن ذوقهم على شرف الوقوع.

(١) قال ابن عباس: يعنون بالملة الآخرة دين النصرانية، فليس عندهم التوحيد بل التثليث، وقال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدرکنا عليه آباءنا.

﴿ أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿ أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾؟ بل أعندهم خزائن رحمته تعالى، يتصرفون فيها حسبما يشاؤون؟ ويتحكمون فيها بمقتضى آرائهم، فيتخيروا للنبوّة بعض صناديدهم؟ والحال أن النبوّة عطية من الله تعالى، يتفضل بها على من يشاء من عباده، لا مانع له فإنه ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ أي الغالب الذي لا يُغالب ﴿ الْوَهَّابِ ﴾ الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء.

﴿ أَمْرٌ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ ﴿١٠﴾ .

﴿ أَمْرٌ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾؟ أي ألهم ملك هذه العوالم، العلوية والسفلية، حتى يتكلموا في الأمور الربانية، ويتحكموا في التدابير الإلهية، التي استأثر بها رب العزة والجلال؟ ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ جواب شرط محذوف، أي إن كان لهم ما ذكر من الملك، فليصعدوا في المعارج التي يتوصل بها العرش، ويدبروا أمر العالم، وينزلوا الوحي إلى من يختارون؟ وفيه من التهكم بهم، ما لا غاية وراءه.

﴿ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أي هم جند من الكفار، المتحزبين على الرسل، مهزومون مكسورون عمّا قريب، فمن أين لهم التدابير الإلهية؟ فلا تبال بما يقولون يا محمد، و«ما» مزيدة للتقليل والتحقير، نحو أكلتُ شيئاً ما، والإشارة في ﴿ هُنَالِكَ ﴾ إلى فتح مكة، والمعنى سيصيرون مهزومين في مكة.

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ ذكر تعالى الأشقياء الفجار ممن كذبوا الرسل، وهم قوم نوح، وعاد قوم هود، وفرعون الطاغية الجبار، ووصف فرعون بذي الأوتاد أي ذي الملك الثابت، والمباني الضخمة العظيمة^(١)، قال الشاعر:

وَلَقَدْ غَنَوْا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ فِي ظِلِّ مُلْكِ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ
وقيل: إنه كان ينصب الخشب في الهواء، وكان يمد يدي المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الأربعة، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً، ويتركه معلقاً في الهواء حتى يموت.

﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾.

﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام ﴿ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء عليهم السلام، وفيه تنبيه على أن مشركي مكة ضرب من أولئك الأحزاب.

﴿ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾.

﴿ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ أي ما كل أحد من آحاد أولئك الأحزاب، إلا كذب الرسل، لأن تكذيب واحد منهم تكذيبٌ لهم جميعاً، لاتفاق الكل على الحق ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أي ثبت ووقع على كل منهم عقابي.

(١) هذا القول مروى عن الضحاك، وقد رجحه ابن عطية، ويدل عليه قوله سبحانه ﴿ كَم تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعَيْونَ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينِ ﴾ فالمراد بالمقام الكريم: الدور والقصور الفخمة، وكذلك قال الزمخشري إن ذلك استعارة في ثبات الملك، واستشهد بقول الأسود بن يعفر «في ظلِّ مُلْكِ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ».

﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَوَٰلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ وَمَا يَنْظُرُ ﴾ أي ينتظر ﴿ هَوَٰلَاءَ ﴾ أي كفار قريش أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هي النفخة الثانية، أي ليس بينهم وبين حلول ما أُعِدَّ لهم من العقاب، إلا هي، حيث أخرت عقوبتهم الشديدة إلى الآخرة ﴿ مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ أي من توقف مقدار فوق، وهو مقدار ما بين الحلّيتين، لأن النافقة تُحلب ثم تترك سُويعَة يرضعها الفصيل، لإِدْرَار اللبن، ثم تحلب ثانية، يعني إذا جاء وقت الصيحة لم تستأخر هذا القدر من الزمان، وهو عبارة عن الزمان اليسير.

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ وَقَالُوا ﴾ كفار مكة ﴿ رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة: يا ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب، الذي توعدنا به، ولا تؤخره إلى يوم الحساب، والقِطُّ: القطعة من الشيء، والحِطُّ والنصيب.

﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ من أمثال هذه المقالات الباطلة ﴿ وَادْخُرْ ﴾ أي تذكّر ﴿ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴾ أي تذكر قصته، وصن نفسك أن تزل فيما كلفت به من مصابرتهم، وتحمل أذيتهم ﴿ ذَا الْأَيْدِ ﴾ المراد بالأيد: القوة، وهي قوة في الدين، أي ذا القوة على أداء العبادة، والاحتراز عن المعاصي ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي رجّاع إلى مرضاة الله تعالى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ، صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا،

ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله، صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه^(١).

﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ أي تسبّح بتسبيحه، وتسبّحُ الجبال حقيقة وكان معجزة لداود عليه السلام ﴿ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ أي في المساء والصباح.

﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي مجموعة حوله، روي أنه عليه السلام كان إذا سبّح، جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير، فسبحت بتسبيحه، وذلك حشرها ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أي كل واحد من الجبال والطير، لأجل تسبيحه، رجّاع إلى التسبيح.

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ ﴾ أي قوّيناه بالهيبة والنصرة، وكثرة الجنود ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوة، وكمال العلم، وإتقان العمل ﴿ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ أي الكلام البين الفصيح الذي ينبه المخاطب على المرام، من غير التباس.

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوُ الْخَضَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوُ الْخَضَمِ ﴾ استفهام معناه التعجب، والتشويق إلى استماع ما في حيزه من الأنباء البديعة، والخضم يُطلق على الواحد، وما فوقه، كالضيف ﴿ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ أي صعدوا علو المحراب من سوره،

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ١٣٣١، ومسلم رقم ١٨٩.

والسور الحائط المرتفع، ونظيره تسنمه إذا علا سنامه، وتذراه إذا علا
ذروته.

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصَّمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى
بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ أي خاف منهم، لأنهم نزلوا عليه من
فوق، على خلاف العادة، في غير يوم الحكومة، لأنه عليه السلام جزأ
زمانه أربعة أجزاء، يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للوعظ، ويوماً
للاشتغال بخاصة نفسه ﴿ قَالُوا ﴾ إزالة لفرعه ﴿ لَا تَخَفْ خَصَّمَانِ ﴾ أريد بهما
شخصان أي فوجان متخاصمان ﴿ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ هو على الفرض وقصد
التعريض إن كانوا ملائكة وهو المشهور ﴿ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ ولا
تجاوز الحد في الحكومة ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ إلى وسط طريق الحق،
وهو العدل، فقال عليه السلام تكلمنا فقال أحدهما.

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي
فِي الْخِطَابِ ﴾ .

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي ﴾ أي في الدين أو في الصحبة، والتعرض لذلك لبيان
قبح ما فعل به صاحبه ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ هي الأنثى من
الضأن، وقد يُكنى بها عن المرأة ﴿ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا ﴾ وحقيقة جعلني أكفلها
كما أكفل ما تحت يدي، وقيل: اجعلها كفلي أي نصيبي ﴿ وَعَزَّنِي فِي
الْخِطَابِ ﴾ أي وغلبني في مخاطبته إياي بحاجة بأن جاء بحجاج لم أقدر
على رده.

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْيِكَ إِلَيَّ نِعَاجِهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۗ ﴾

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْيِكَ إِلَيَّ نِعَاجِهِ ۗ ﴾ جواب قسم محذوف قصد به عليه السلام المبالغة في الإنكار، ولعله قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه، أو على تقدير صدق المدعي ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي ليتعدى غير مراعاة لحق الصحبة والشركة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ منهم فإنهم يتحامون عن البغي والعدوان ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ أي وهم قليل، و«ما» مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ الظن مستعار للعلم لما بينهما من المشابهة الظاهرة، أي فعلم عليه السلام أنه تعالى ابتلاه وامتحنه بتلك الحكومة هل يتنبه بها وقيل لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، ثم صعدا إلى السماء فعلم الأمر ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ إثر ما علم أن ما صدر عنه خطأ ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أي ساجداً على تسمية السجود ركوعاً، أو خرّاً للسجود راعياً أي مصلياً ﴿ وَأَنَابَ ﴾ رجع إلى الله بالتوبة.

«فصل»

وفي هذه القصة ثلاثة أقوال:

القول الأول: وحاصل كلامهم أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال حتى قتل زوجها ثم تزوج بها، فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين، في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً، ثم تنبّه لذلك، فاشتغل بالتوبة!! والذي أدين الله به وأذهب إليه، أن ذلك باطل، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن هذه الحكاية لو نُسبت إلى أفسق الناس لاستنكف منها،

والرجل الخبيث الذي يقرر تلك القصة، لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه، وربما يلعن من نسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يليق بالعاقل نسبة هذا الإفك، بمن خصَّصه الله تعالى بنبوته، واثمنه على وحيه، وشرفه على كثير من خلقه، وأمر أفضل خلقه محمداً ﷺ، بأن يقتدي به في مكارم الأخلاق.

الثاني: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام بالصفات العشرة المذكورة قبل القصة ووصفه بصفات كثيرة بعدها وكل واحدة من هذه الصفات دالة على براءة ساحته عليه السلام عن تلك الأكاذيب.

والثالث: أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود وتعظيمه، ومؤخرتها أيضاً دالة على ذلك، فلو كانت الوساطة دالة على القبائح والمعائب، لجرى مجرى أن يقال: فلانٌ عالي الدرجة في طاعة الله، يقتل ويزني، وقد جعله الله خليفةً في أرضه، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل، فكذا ههنا.

والرابع: أن داود عليه السلام قال: ﴿وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا﴾ استثنى الذين آمنوا عن البغي، فلو قلنا: إنه كان موصوفاً بالبغي، لزم أن يقال: إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه، وذلك باطل.

الخامس: لو فعل ذلك لكان ظالماً فكان يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ فثبت بهذه الوجوه أن القصة التي ذكروها فاسدة، باطلة، فإن قال قائل: إن بعض المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة، فكيف الحال فيها؟ الجواب: أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة، وبين خبر الآحاد، كان الرجوع إلى الدلائل أولى، وأيضاً الأصل براءة الذمة، وأيضاً إذا تعارض دليل التحليل والتحريم، كان جانب التحريم أولى، وفي نوع هذه الواقعة لا يقول الله تعالى لنا لِمَ لَمْ تَسْعُوا

في تشهير هذه الواقعة، وأما بتقدير كونها باطلة، فإن علينا في ذكرها أعظم العقاب.

القول الثاني: في كيفية هذه القصة فيه وجهان:

الأول: أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه، ثم خطبها داود فأثره أهلها، فكان خطؤه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن، مع كثرة نسائه، ويدل على صحة هذا الوجه قوله: ﴿وَعَزَّزْنِي فِي الْخِطَابِ﴾ فدلَّ هذا أنه كان بينهما في الخطبة.

الوجه الثاني: أنه كان أهل زمان داود عليه السلام، يسأل بعضهم بعضاً أن يطلِّق امرأته حتى يتزوجها، وكانت عاداتهم في هذا معروفة، كما أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بهذا المعنى، فطلب داود من أوريا النزول عنها، فاستحيا أن يرده ففعل، وهي أم سليمان، فقيل له: هذا وإن كان جائزاً في ظاهر الشريعة، إلا أنه لا يليق بك، فهذان الوجهان لو حملنا هذه القصة على واحد منهما، لم يلزم في حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل.

القول الثالث: وهو أن نقول: روي أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود، وكان له يوم يشتغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً، فخافوا فوضعوا كذباً فقالوا خصمان بغى... إلخ.

وليس في القرآن ما يمكن أن يُحتج به في إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة - ﴿وَوَطَّنَ دَاوُدُ أَنْمَا فَتْنَاهُ﴾ ٢ - ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ ٣ - ﴿وَأَنَابَ﴾ ٤ - ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ نقول: وهذه الألفاظ لا تدل على ما ذكروه إنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم إلا أنه مال إلى الصفح طلباً لمرضاة الله، وكانت هذه الواقعة فتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء، ثم استغفر ربّه ممّا همّ به من

الانتقام، وتاب، فغفر له، فكان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَوَظَنَ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ الخ إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه لا يلزم إسناد الذنوب إلى داود عليه السلام، وأما إذا قلنا: الخصمان كانا مَلَكَين وما كان بينهما مخاصمة، وما بغى أحدهما على الآخر، كان قولهما خصمان بغى الخ كذباً فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين: ١ - إسناد الكذب إلى الملائكة، ٢ - وإسناد القبائح إلى رجل كبير من الأنبياء، فكان قولنا أولى، والله أعلم بأسرار كلامه^(١).

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَكَابٍ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي ما استغفر منه ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي لقربة وكرامة بعد المغفرة ﴿وَحُسْنَ مَكَابٍ﴾ أي حسن مرجع في الجنة، ومثل هذه الخاتمة، إنما تحسن في حق من صدر منه عمل كثير في الخدمة والطاعة، وتحمل أنواع الشدائد في الانقياد، أما إذا كان المذكور هو الإقدام على الجرم والذنب، فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به، قال مالك ابن دينار: إذا كان يوم القيامة، أتيت بمنبر رفيع ويوضع في الجنة، ويقال: يا داود مجدي بذلك الصوت الحسن الذي كنت تمجدني به في الدنيا.

(١) ما نقله بعض المفسرين من الأخبار الإسرائيلية، كلها أقوال باطلة واهية، لا يصح نسبتها إلى نبي كريم كداود عليه السلام، وخلاصتها أنه رأى زوجة أحد قواده، فأحبها وعشقها، وأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدى المعارك فلما قتل خطبها وتزوجها، فهذه فرية ما فيها مرية، وكما نقل المؤلف عن الإمام الفخر الرازي بطلان هذه الرواية من عدة وجوه، وهذا هو الذي ندين الله عز وجل به أن القصة كلها باطلة، وقد حققنا ذلك في كتابنا صفوة التفاسير ٥٤/٣ ونقلنا عن علي رضي الله عنه قوله: «من حدّث بحديث داود على ما يرويه القصاص - يعني أهل القصص والأخبار - جلده مائة وستين جلدة، وهو حد الفرية على الأنبياء» وارجع إلى تفسير ابن كثير، والفخر الرازي، فقد أجادا في هذا الموضوع وأفادا.

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
 الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
 بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ .

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي قلنا له: يا داود إِنَّا قد
 استخلفناك على الملك فيها، والحكم فيما بين أهلها، وفيه دليل على أن
 حاله بعد التوبة، كما كانت قبلها، لم تتغير قط، وهذا من أقوى الدلائل
 على فساد القول الأول المشهور، لأن من كان ساعياً في سفك دم المسلم،
 وراغباً في انتزاع زوجته منه، فتفويضُ خلافة الأرض من جهة الله تعالى
 إليه بعيدٌ جداً ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ بحكم الله تعالى، فإن الخلافة مقتضية
 له حتماً ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أي هوى النفس في الحكومات، وغيرها من أمور
 الدين والدنيا، وهو يؤيد أن خطأه عليه السلام كان بالمبادرة إلى تصديق
 المدعي، وتظلم الآخر قبل مسألته ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيكون الهوى أو
 اتباعه سبباً لضلالك، عن دلائله التي نصبها على الحق، تكويناً وتشريعاً
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تعليل لما قبله، أي إن الذين ينحرفون عن
 دين الله وشرعه المستقيم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا﴾ أي بسبب نسيانهم
 ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أي لهم عذاب شديد يوم الحساب، بسبب تكذيبهم به، وعدم
 اعتقادهم بلقاء الله، وقيل: المعنى: بما تركوا الإيمان بيوم الحساب، أو عدم
 العدل في القضاء. روي عن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لبعض أكابر
 العلماء وهو - أبو زُرعة - هل سمعت ما بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه
 القلم، ولا يكتب عليه معصية؟ فقال له: يا أمير المؤمنين: الخلفاء أفضل
 أم الأنبياء؟ إن الله جمع لداود بين الخلافة والنبوة، ثم توعدده في كتابه
 فقال: ﴿يا داود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا
 تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية، فكانت موعظة بليغة^(١).

(١) ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢٠١/٣ من المختصر.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ﴾ أي وما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات، على هذا النظام البديع، الذي تحار في فهمه العقول، خلقاً باطلاً، أي خالياً عن الغاية والحكمة، بل منطوياً على الحكيم البالغة ذلك ﴿ إِشَارَةٌ إِلَى مَا نُفِي، أَي خَلَقَهَا بَاطِلًا ﴾ ﴿ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي مظنونهم فإن جحودهم للبعث والجزاء، الذي يدور عليه فلك التكوين، قولٌ منهم ببطلان الحكمة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بسبب هذا الظن الباطل ﴿ مِنَ النَّارِ ﴾ أي فويل لهم من عذاب النار المترتب على ظنهم وكفرهم.

﴿ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بين الفريقين على أبلغ وجه ﴿ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي بل أنجعل المؤمنين المصلحين، كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض؟ ﴿ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ إضراب وانتقال بلزوم ما هو الأظهر منه استحالة، أي أم نجعل الأبرار الأخيار، كالأشرار الفجار؟ هذا لا يمكن في عدل الله وحكمته؟

﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿ كَتَبَ ﴾ أي هذا كتاب يعني القرآن ﴿ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ ﴾ كثير المنافع والخيرات ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ أي أنزلناه ليتفكروا في آياته المعجزة العجيبة

فيقفوا على ما فيها ويعملوا بها ﴿وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي وليتعض به ذوو العقول السليمة .

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ .

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ أي نعم سليمان كما ينبيء عنه تأخره عن داود، مع كونه مفعولاً صريحاً لوهبنا ولأن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تعليل للمدح أي رجّاع إلى الله بالتوبة والإنابة.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْخِيَادُ﴾ .

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ أي اذكر حين عرضت عليه خيله ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ هو من الظهر إلى آخر النهار ﴿الصَّافِنَاتُ الْخِيَادُ﴾ الصافن الخيل الذي يقوم على ثلاث قوائم، وأقام الأخرى على طرف حافر، وهي من الصفات المحمودة في الخيل، ولا يكاد يتفق إلا في العرابي الخالص ﴿الْخِيَادُ﴾ صفة أخرى، وهو الذي يسرع في جريه، وذكر تعالى الصفون، والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين، واقفة، وجارية، أي إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في موافقها، وإذا جرت كانت سراعاً وخفافاً في جريها، روي أنه عليه السلام غزا وأصاب ألف فرس فقعد يوماً بعدما صلى الظهر على كرسيه، فاستعرضها فلم تزل تُعرض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن وردٍ كان له من الذكر، فاغتمّ لما فاته، فاستردها فعقرها تقرباً لله تعالى، وقيل: لَمَّا عقرها أبدله الله تعالى خيراً منها، وهي الريح تجري بأمره إلى حيث شاء .

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ﴾ .

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ قاله عند غروب الشمس، اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن ذكر الله، وندماً عليه، وتمهيداً

لما يعقبه من الأمر بردّها وعقرها، والتأكيد للدلالة على ندمه عن صميم القلب ومعنى ﴿أَحْبَبْتُ﴾ آثرتُ كقوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ والخير المال الكثير، والمراد به الخيل التي شغلته ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها وقال ﷺ: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة»^(١) ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي غربت الشمس تشبيهاً لغروبها في مغربها بتواري المخبّأة بحجابها، وإضمارها من غير ذكرٍ، لدلالة العشيِّ عليها، وقيل: الضمير للصافنات أي حتى توارت الخيل بحجاب الليل أي بظلامه.

﴿رُدُّوَهَا عَلَىٰ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

﴿رُدُّوَهَا عَلَىٰ﴾ من مقالة سليمان عليه السلام ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ الفاء فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت إيذاناً لسرعة الامتثال بالأمر، أي فردوها عليه فأخذ يمسح السيف مسحاً ﴿بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي بسوقها وأعناقها يقطعها، ويتصدّق بلحومها على الفقراء، وإنما فعل ذلك كفارة لها، وكانت الخيل مأكولة في شريعته فلم يكن إتلافاً، وقيل: مسحها بيده استحساناً لها، وإعجاباً بها، وحبسها في سبيل الله. قال الأكثرون: إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر، بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل، استردّها وعقر سوقها وأعناقها، تقرباً إلى الله تعالى، وعندني أن هذا بعيدٌ، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه لو كان معنى مسح السوق قطعها لكان معنى ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾ قطعها.

الثاني: القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة ١ - ترك الصلاة، ٢ - الاشتغال بحب الدنيا، ٣ - أنه

(١) رواه أحمد في المسند.

خاطب رب العالمين بقوله: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ وهذه الكلمة لا يذكرها الرجل إلا مع الخادم الخسيس، ٤ - عقر الخيل في سوقها وهو منهي عنه، ٥ - إنه بعد الإتيان بهذه الذنوب لم يشتغل بالتوبة، فهذه أنواع من الذنوب نسبوها إلى سليمان عليه السلام، مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها، بل ينادي على هذه الأقوال بالرد والإبطال، والتفسير المطابق لألفاظ القرآن أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين الإسلام، ثم إنه عليه السلام لما احتاج إلى الغزو أمر بإحضار الخيل، وذكر إنني لا أحبها لأجل الدنيا، إنما أحبها لأمر الله تعالى، ثم أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يرُدُّوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه، طفق يسمح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك إمّا تشريفاً لها وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعداء في دفع العدو، وإما أراد أن يُظهر أنه في ضبط السياسة والملك، يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَانَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (٣٤)

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَانَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أظهر ما قيل في فتنته عليه السلام ما روي مرفوعاً، أنه قال: «لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، تأتي كلُّ واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقل: إن شاء الله تعالى، فطاف عليهنَّ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة بشقِّ رجل، والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»^(١) ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ رجع إلى الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري ولم يذكر أنه تفسير للآية الكريمة، فيحتمل أنه تفسير، ويحتمل أنه قصة.

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ بدل من أناب وتفسير له ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ أي ما صدر عني من
الزلة ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ لا يتسهل لغيري، يكون مختصاً بي
ليكون معجزة دالة على نبوتي ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء،
تعليل للدعاء بالمغفرة والهبه معاً.

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ أي فذللناها لطاعته إجابة لدعوته ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ أي
بأمر سليمان وهو بيان لتسخيرها له ﴿ رُخَاءً ﴾ أي لينة طيبة، لا تزعج ولا
تخالف إرادته ﴿ حَيْثُ أَصَاب ﴾ أي حيث قصد وأراد.

﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أي وسخرنا له الشياطين ﴿ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴾ أي منهم من
يبني له القصور الشاهقة، ومنهم من يغوص في البحر لاستخراج الدرر
والجواهر.

﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أي وآخرين من الشياطين - وهم المردة -
مربوطون بالقيود والسلاسل، لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان، كأنه
عليه السلام، فصل الشياطين إلى عملة، وإلى مردة قرن بعضهم مع بعض
في السلاسل، لكفهم عن الشر والفساد، وإلى غواصين يغوصون البحار،
لاستخراج الياقوت والمرجان.

﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿ هَذَا ﴾ أي الأمر الذي أعطيناك من المُلْك، والبسطة، والتسلط
﴿ عَطَاؤُنَا ﴾ الخاصُّ بك ﴿ فَاْمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ أي فأعط من شئت، وامنع من
شئت ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا حساب عليك في ذلك، لأنك مطلق اليد في
التصرف بهذا الملك الواسع .

﴿ وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْفَىٰ وَحُسْنِ مَقَابٍ ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿ وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْفَىٰ وَحُسْنِ مَقَابٍ ﴾ أي وإن له عندنا لمكانة رفيعة، ومنزلة
سامية، مع ما له من الملك العظيم الواسع في الدنيا .

﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ هو ابن عيص بن إسحق عليه السلام ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ أي دعا ربه وتضرع إليه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ ﴾ بتعب ومشقة
﴿ وَعَذَابٍ ﴾ أي ألم شديد، يريد مرضه، وما كان يقاسيه من فنون الشدائد
وهو المراد بالضر في قوله تعالى: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ فقد حصل عنده
نوعان من المكروه: الغمُّ الشديد بسبب زوال الخيرات، والألم في جسمه،
ولذا قيل ﴿ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ والإسناد إلى الشيطان مراعاة للأدب، وإن
كانت الأشياء كلها، خيرها وشرها من الله تعالى، ولأن الشيطان يغريه على
الكراهة والجزع، فالتجأ إليه تعالى في أن يكفيه ذلك، بكشف البلاء،
ومراعاة للأدب، وليس هذا تمام دعائه عليه السلام، بل من جملته ﴿ وَأَنْتَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فاكتفى ههنا عن ذكره بما في سورة الأنبياء، ولما
انقضت مدة ابتلائه قلنا له بواسطة جبريل:

﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ أي اضرب بها الأرض، فاضرب بها فنبعت عين
فاغتسل منها، وعين باردة فشرب منها، والركض: الدفع القوي بالرجل
﴿ هَذَا مَغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ تغتسل به، وتشرب منه، فيبرأ ظاهره وباطنه.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٤٣).

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ أي فاغتسل وشرب ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾ كما في
سورة الأنبياء ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ أي بجمعهم بعد تفرقهم ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾
فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي لرحمة عظيمة
عليه من قبلنا ﴿ وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ولتذكيرهم ليصبروا على الشدائد كما
صبر، ويلجؤوا إلى الله تعالى فيما يحيق بهم كما لجأ، ويعلموا أن عاقبة
الصبر الفرج.

﴿ وَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٤٤).

﴿ وَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا ﴾ أي وقلنا له: خذ بيدك حزمة من قضبان خفيفة
فيها مائة عود ﴿ فَأَضْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ ﴾ أي لتبرّ في يمينك، روي أن زوجته
«رحمة بنت إفرائم بن يوسف» ذهبت لحاجة فأبطأت عليه، فحلف إن
بريء ضربها مائة^(١)، فحلل الله يمينه بذلك، ولقد شرع الله سبحانه هذه

(١) سبب حلفه أن زوجته كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتدّ به البلاء، وطالت
المدّة، وسوس إليها الشيطان إلى متى تصبرين، فجاءت إلى أيوب وفي نفسها
الضجر، فقالت: إلى متى نصبر على هذا البلاء؟ ادع الله أن يشفيك، فغضب من هذا
الكلام، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأراد الله أن يعصم نبيه أيوب عليه
السلام من الذنبيين الظلم، والحنث، وأن لا يضيع أجر إحسان المرأة مع زوجها،
وأن لا يكافئها بالخير شراً، وتبقى ببركتها هذه الرخصة في الأمم إلى يوم القيامة.

الرخصة رحمةً عليه وعليها، لحسن خدمتها إياه، ورضاه عنها، وهي رخصة باقية في الحدود عند أبي حنيفة والشافعي، وقال مالك وأحمد: لا يبزُّ به ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ ﴿٤٠﴾ فيما أصابه في النفس، والأهل، والمال، وليس في شكواه إخلال بذلك، فإنه كالتمني للعافية، وكمن اشتكى من عدوه إلى حبيبه، والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدر في الصبر ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي أيوب ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تعليل لمدحه، أي رجَّاع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ أي أولي القوة في الطاعة، والبصيرة في الدين.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ أي جعلناهم خالصين لنا، بخصلة عظيمة الشأن، كما ينبىء عنه التنكير التفضيحي ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ بيان للخالصة بعد إبهامها، أي تذكروهم للدار الآخرة دائماً.

قال مجاهد: «جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم همٌ غيرها»، وذلك لأن مطمح أنظارهم جوار الله عزَّ وجلَّ، والفوز بقاءه، ولا يتسنى ذلك إلا في الآخرة، وإطلاق الدار للإشعار بأنها هي الدار في الحقيقة، وإنما الدنيا معبر.

﴿وَأَيُّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿وَأَيُّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي لمن المختارين من أمثالهم.

﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿وَأَذَكُرَّ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ﴾ أي كلهم ﴿مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ المشهورين بالخيرية والفضل، فاقتد بهم في الصبر، وتحمل الأذى من الأعداء.

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم من الآيات، الناطقة بمحاسنهم ﴿ذِكْرٌ﴾ أي شرفٌ لهم، وذكُرٌ جميل، يُذكرون به أبداً وعن ابن عباس: هذا ذكر من مضى من الأنبياء عليهم السلام ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي حسن مرجع ومنقلب، يرجعون إليه في الآخرة، والمراد بالمتقين الجنس، وهم داخلون في الحكم، أو المذكورون من الأنبياء، عبّر عنهم بذلك، مدحاً لهم بالتقوى، التي هي الغاية من الكمال.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي هي جنات إقامة في دار الخلد والنعيم، وهو بيان لحسن مآب ﴿مَفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ أي قد فتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدومهم، فيدخلونها محفوفين بالملائكة، على أجمل هيئة، وأحسن حال، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (١) سورة الزمر.

﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ الإقتصار على دعاء

(١) سورة الزمر، آية: ٧٣.

الفاكهة، للإيدان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ، دون التغذي، فإنه لا جوع ولا عطش في الجنة.

﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ أَرْبَابٌ ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ ﴾ أي قصرن أنظارهنَّ على أزواجهنَّ، لا ينظرن إلى غيرهم ﴿ أَرْبَابٌ ﴾ أي هنَّ في سنٍّ واحد، سنُّ الصبا والشباب، ليس فيهن عجائز، بنات ثلاث وثلاثين، كما هو سن أزواجهن.

﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي يقال لهم: هذا جزاؤكم الذي وعدتم به في الدنيا ليوم الجزاء والحساب.

﴿ إِنَّ هَذَا الرِّزْقَنَا مَا لَمْ يَنْفَادِ ﴾ ﴿٥٤﴾ .

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ ما ذكر من النعم والكرامات ﴿ لِرِزْقِنَا ﴾ أعطيناكموه ﴿ مَا لَمْ يَنْفَادِ ﴾ أي ليس له انقطاع أبداً بل هو دائم، كلما أخذ منه شيء، عاد مثله في مكانه.

﴿ هَذَا وَرَبِّ اللَّطِغِينَ لَشَرِّ مَتَابٍ ﴾ ﴿٥٥﴾ .

﴿ هَذَا ﴾ أي الأمر هذا ﴿ وَرَبِّ اللَّطِغِينَ لَشَرِّ مَتَابٍ ﴾ شروع في بيان حال الأشقياء المجرمين، بعد بيان حال السعداء المتقين.

﴿ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْهَاهُ ﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا ﴾ أي يدخلونها ويصلون سعيها ﴿ فَيَنْسُ الْهَاهُ ﴾ أي

بُست جهنم فراشاً ومهاداً لهم يفترشونه، شبه ما تحتهم من النار بالفراش، فهو فراشٌ لكن لا راحة فيه، لأنه من نصف جهنم.

﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴾ (٥٧).

﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ أي ليدوقوا هذا، إنه العذاب الأليم فليذوقوه، وليهنأوا به ﴿ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴾ إنه الحميم الذي يقطع الأمعاء بحرارته، والصديد الذي يسيل من جلود أهل النار.

﴿ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ (٥٨).

﴿ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ ﴾ أي هذا العذاب الذي أعدَّ لهم هو الحميم، أي الماء الحار الذي انتهى إلى درجة الغليان، والغساق: وهو ما يسيل من جلود أهل النار من الصديد والدم، ومذاق آخر من مثل هذا المذاق، في الشدة والكدر ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أي أجناس، كالزمهرير، والرَّقُوم، والسَّمُوم.

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ (٥٩).

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ حكاية ما يقال من جهة الخزنة للرؤساء الطاغين، إذا دخلوا النار، واقتحمها معهم فوج، كانوا يتبعونهم في الكفر والضلالة، والاقترحام: الدخول في الشيء بشدة ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ هو من تمام كلام الخزنة، بطريق الدعاء على الفوج، أي لا رُحِبْتُ بهم الدار ﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ تعليل لاستحقاقهم الدعاء، وقيل: هذا من كلام الرؤساء الطغاة، للأتباع الأشقياء، إذا قالت لهم الملائكة، هذا فوج من أتباعكم، معكم في نار جهنم، يدخلونها كما دخلتموها، قال الرؤساء: لا أهلاً بهم ولا مرحباً!! فيقول الأتباع:

﴿ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْرَجِبَاءُ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ أي الأتباع عند سماعهم ما قيل ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْرَجِبَاءُ بِكُمْ ﴾ أي بل أنتم أحق بالخزي واللعنة ﴿ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا العذاب، وكنتم سبباً فيه ﴿ فَيَسَّ الْقَرَارُ ﴾ أي فبسّ المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم .

﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ أي الأتباع أيضاً معرضين عنهم إلى الله تعالى ﴿ رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ كقولهم: ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ﴾^(١) أي عذاباً مضاعفاً، بأن يزيد عليه مثله .

﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي الرؤساء الكفرة ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾؟ يعنون فقراء المسلمين، الذين كانوا يستردلونهم، ويسخرون منهم .

﴿ أَخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ أَخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا ﴾ صفة أخرى لرجالاً ﴿ أَمْ زَاغَتْ ﴾ أي مالت ﴿ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ فلا نراهم أي ما لنا لا نراهم في النار؟ كأنهم ليسوا فيها، أم هل أزاحت عنهم أبصارنا فلا نراهم؟

(١) سورة الأعراف، آية: ٣٨ .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ ﴿٦٤﴾ .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ الذي حُكي من أحوالهم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لا بد من وقوعه البتة وهو قوله تعالى ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أي في النار، وإنما سماه تخاصماً، لأن قول القادة للأتباع ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ وقول الأتباع: ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ باب المخاصمة، لأن فيه تقييحاً، وتشنيعاً، وتلاعناً، ودعاء بعضهم على بعض .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ﴿٦٥﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ أمر لرسول الله ﷺ أن يقول للمشركين ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ من جهته تعالى، أنذركم عذابه ﴿ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ ﴾ في الوجود ﴿ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ ﴾ الذي لا يقبل الشركة أصلاً ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ لكل شيء سواه، وكونه تعالى قهاراً، يدلُّ على وحدانيته .

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ ﴿٦٦﴾ .

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات، فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها؟ ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب في أمر من أموره ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ المبالغ في المغفرة، وفي هذه النعوت الوعدُ والوعيدُ .

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿٦٧﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ تكرير الأمر، للإيدان بأنه أمر جليل، له شأن خطير ﴿ هُوَ ﴾ أي ما أنبأتكم به من أني منذر، وأنه تعالى واحد أحد، متصف بما ذُكر، هو خبرٌ هام، ونبأٌ عظيم الشأن. والأظهر أن الضمير يعود على القرآن،

كما يشهد به آخر السورة، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي هذا القرآن الذي جئتكم به، هو نبأ عظيم وارد من جهته تعالى.

﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (٦٨).

﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ استئناف ناع عليهم سوء صنيعهم، بيان أنهم لا يقدرونه قدره الجليل، حيث يعرضون عنه مع عظمتهم.

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٦٩).

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم، لولا الوحي المنزل عليّ؟ وفي ذلك حجة بينة، دالة على أن ذلك النبأ، بطريق الوحي من عند الله تعالى، لأنه ﷺ لم يسلك طريق العلم، ولا قراءة الكتب ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ما كان لي فيما سبق علم بحال الملائكة الأعلى، وقت اختصاصهم، فإن قلت: كيف يجوز أن يقال: إن الملائكة اختصموا مع الله تعالى بسبب قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾؟ قلت: لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشبه المخاصمة في الحوار، وهو علة لجواز المجاز فعبر عن الحوار بالخصام.

﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٠).

﴿إِنْ يُوحَىٰ﴾ أي ما يوحى ﴿إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما يوحى إليّ ما يوحى من الأمور الغيبية، إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته تعالى، أرسلني الله إليكم لأنذركم عذابه.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (٧١).

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ أي اذكر حين أخبر ربك الملائكة، بأني سأخلق إنساناً من تراب مبلول، وهو الطين، والمراد به أبونا آدم عليه السلام.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ﴿٧٢﴾ .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أي اسجدوا له سجود تحية وتكريم.

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٧٤﴾ .

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ ﴾ أي تعظم ﴿ وَكَانَ ﴾ أي صار بسبب استكباره وعصيانه لأمر الله ﴿ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي أصبح كافراً ملعوناً، مطروداً من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ۗ اسْتَكْبَرْتَ ۗ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ۗ ﴾ أي لما خلقته بيدي فكَّرْتُهُ، ونفخت فيه الروح بنفسي من غير توسط الأب والأم؟ ﴿ اسْتَكْبَرْتَ ۗ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾؟ أي المستحقين للتفوق على آدم بمآثر خاصة، تستحق به التكريم؟ .

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فإنا أشرف منه وأفضل .

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ .

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا ﴾ أي اخرج من السماوات ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي مطرود من كل الخير والكرامة .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ أي إلى وقت النفخة الأولى، وهو الوقت الذي قدره الله لفناء الخلائق .

﴿ قَالَ فِعِزَّنَاكَ لِأَعْوَانِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ فِعِزَّنَاكَ ﴾ أي فبسلطانك وجلالك، أقسم لك يارب ﴿ لِأَعْوَانِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴾ وهم المؤمنون الصادقون، الذين اصطفيتهم لنفسك، فلا قدرة لي عليهم !! .

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ .

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ أي لا أقول إلا الحق، فالحق قسَمي .

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لأملأ جَهَنَّمَ من

المتبوعين والأتباع أجمعين، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٨٦)

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي على تبليغ ما أوحى إليّ من أجرٍ دنيوي ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أي المتصنعين بما ليسوا من أهلها، حتى أنتحل النبوة، وأتقول القرآن، وكلُّ من قال شيئاً من تلقاء نفسه فقد تكلف له، روي عن مسروق قال: دخلنا على ابن مسعود رضي الله عنه فقال: أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم؟ فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾^(١) والغرض من الآية: أن هذا الدين الذي أدعوكم إليه، ليس يحتاج في معرفة صحته، إلى التكاليف الكثيرة، بل هو دينٌ يشهد صريح العقل بصحته، فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله تعالى، وتقديسه عن كل ما لا يليق به، منزهاً عن الشريك والأضداد، ومتصفاً بكمال الصفات، ثم أدعوكم إلى الإقرار بالبعث والنشور، فكل ذلك حقٌّ لا مرية فيه.

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٨٧)

﴿ إِنَّ هُوَ ﴾ أي ما هو يعني القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي الإنس والجن وسائر الخلق.

(١) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة ص ٥٤٧/٨ باب ﴿وما أنا من المتكلمين﴾ وله تمة.

﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي وتعلمن خبره وصدقه عن قريب عند ظهور الإسلام، وبعد الموت، والله تعالى أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ص»

* * *

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

مكية وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ﴿١﴾ .

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هذا القرآن العظيم تنزيل من الله جلّ وعلاً ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ أي القاهر الذي لا يُغلب، ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمة وتدبر، والتعرض لوصفي العزة، والحكمة، للإيدان بظهور أثرهما في الكتاب، على أساس الحكَم الباهرة.

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاغْبُغِبْ لَهُ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الْاٰدِيْنَ ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي متضمناً الحقّ الذي لا ريب فيه، والصدق الذي لا يشوبه هزل أو باطل، والمراد بالكتاب هو القرآن، وإظهاره لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه ﴿ فَاغْبُغِبْ لَهُ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الْاٰدِيْنَ ﴾ أي من شوائب الشرك والرياء. ولفظ «التنزيل» يشعر بأنه تعالى أنزله نجماً نجماً، على سبيل التدرّج، ولفظ «الإنزال» يشعر بأنه تعالى أنزله دفعة واحدة، فكيف الجمع بينهما؟ والجواب: أن المعنى: إِنَّا حَكَمْنَا حَكْمًا كَلِيًّا جَازِمًا،

بأن يوصل إليك هذا الكتاب، وهذا هو الإنزال، ثم أوصلناه إليك يا محمد نجماً نجماً على وفق المصالح، وهذا هو التنزيل.

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ ۗ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ۙ .

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ ۗ ﴾ الخ تحقيق لحقية ما ذكر من إخلاص الدين الذي هو عبارة عن التوحيد، وبطلان الشرك، أي ألا فانتبهوا، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، لأنه المتفرد بالألوهية ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ﴾ أي المشركون ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ كالملائكة، وعيسى، والأصنام، يقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أي والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى، بل شابوها بعبادة غيره، يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله قربة، ويشفعوا لنا عنده ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الخلائق ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين الذي اختلفوا فيه، بالتوحيد والإشراك، وادعى كل منهم صحة ما انتحله، وحكمه تعالى فيه إدخال المخلصين الجنة، والمشركين النار ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي ﴾ أي لا يوفق للاهتداء إلى الحق ولكنه يخذله ﴿ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي راسخ في الكذب مبالغ في الكفر، فإنهما فاقدان للبصيرة.

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۗ سُبْحَانَ اللَّهِ ۗ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ۙ .

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ استئناف لتحقيق الحق، وإبطال كذبهم بأن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك، أي لو أراد الله أن يختار لنفسه ولداً ﴿ لَأَصْطَفَىٰ ﴾ أي لآخذ ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ ﴾ أي من جملة ما يخلقه ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ أن يتخذه، إذ لا موجود سواه، إلا وهو مخلوق له، ومن البين أن

المخلوق لا يماثل خالقه، حتى يمكن اتخاذه ولداً ﴿سُبْحٰنَهُ﴾ أي تنزهه عن ذلك تنزهاً بليغاً ﴿هُوَ اللهُ اَلْوَحِدُ اَلْقَهَّارُ﴾ أي الواحد في ذاته، القاهر لعباده، فكيف يكون له ولد، والوحدانية تنافي المماثلة، والقهارية تنافي الحاجة إلى الذرية؟.

﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ اَللَّيْلَ عَلٰى النَّهَارِ وَيَكُوِّرُ النَّهَارَ عَلٰى اَللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرٰى لِاَجَلٍ مُّسَمًّى اَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدالة على تفردّه بما ذكر من الصفات الجليلة ﴿يَكُوِّرُ اَللَّيْلَ عَلٰى النَّهَارِ وَيَكُوِّرُ النَّهَارَ عَلٰى اَللَّيْلِ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس، والتكويرُ: اللفُّ والليُّ ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرٰى لِاَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿اَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي الغالب القادر على كل شيء، والمبالغ في المغفرة، ولذلك لا يعاجل بالعقوبة، وقد اتفق علماء المعقول من المسلمين على كروية الأرض، وظواهر النصوص أدل على هذا، ويدل عليه تعقيب الليل النهار لأن الأرض تدور على محورها تحت الشمس، فيكون نصفها مضيئاً بنورها دائماً ونصفها الآخر مظلماً، وهذا معلوم بالقطع في هذا العصر^(١).

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَاَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ اَلْاَنْعَامِ ثَمَنِیَّةً اَزْوَاجًا یَخْلُقْكُمْ فِی بُطُونِ اُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِی ظُلْمٰتٍ ثَلَاثٍ ذٰلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَانۡی تُصْرَفُونَ﴾.

(١) انظر كتابنا «حركة الأرض حقيقة علمية أثبتها القرآن» ففيه أدلة ساطعة على الموضوع.

﴿حَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ المراد بالنفس: نفسُ آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء فيه ثلاث آيات مترتبة: خلق آدم، وخلق حواء، ثم تشعب الخلق منهما ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ أي قضى وأحدث لكم، بأسباب نازلة من السماء كالأمطار، وأشعة الشمس والكواكب ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَرْوَاحٍ﴾ ذكراً وأنثى، هي: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ في أطوار مختلفة دالة على القدرة الباهرة ﴿خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ﴾ أي خلقاً مدرجاً نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم إلى تمام الخلق ﴿فِي ظُلْمَتٍ ثَلَاثٍ﴾ وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، أو ظلمة الصلب، والبطن، والرحم ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلكم العظيم الشأن الذي عُدَّتْ أفعاله ﴿اللَّهُ﴾ جل جلاله ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعده ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ على الإطلاق، في الدنيا والآخرة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّ تُصَرِّفُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادته تعالى، مع وفور موجباتها ودواعيها، إلى عبادة غيره من غير داع إليها.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ به تعالى بعد مشاهدة ما ذكر من فنون نعمائه، ومعرفة شؤونه الموجبة للإيمان والشكر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي فإن الله غني عن إيمانكم وشكركم، ولا يرضى منكم الكفر وهو قول السلف، قالوا: كفر الكافر غير مرضي لله تعالى، وإن كان بإرادته، والرضا: عبارة عن مدح الشيء، والثناء على فعله، والله تعالى لا يمدح الكفر، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد، وقد بان الفرق، وعدم رضاه بكفر عباده، لأجل منفعتهم، ودفع مضرتهم، رحمة عليهم، لا لتضرره تعالى به ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا﴾ فتؤمنوا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي يرضى الشكر لأجلكم، لأنه سبب

لفوزكم بسعادة الدارين، لا لانتفاعه تعالى به ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس حاملة للوزر، حمل نفس أخرى، وهذا بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلاً ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي تعملونه في الدنيا، أي يجازيكم بذلك، ثواباً وعقاباً، وهذا تهديد للعاصي، وبشارة للمطيع ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بمضمرات قلوبكم، فكيف بالأعمال الظاهرة؟.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ كربٌ وبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إليه مما كان يدعو في حالة الرخاء لعلمه، وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي أعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل التحويل والعطاء ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي شركاء في العبادة ﴿لِيُضِلَّ﴾ أي الناس بذلك ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الذي هو التوحيد ﴿قُلْ﴾ تهديداً لذلك الضال ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي من ملازميها والمعذبين فيها.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ﴾ من تمام الكلام كأنه قيل له تأكيداً للتهديد: أنت

أحسن حالاً ومالاً، أم من هو قائم بموجب الطاعات، ودائم على أداء وظائف العبادات؟ ﴿ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي في ساعاته، حالتي السراء والضراء، لا عند مساس الضرر فقط ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أي جامعاً بين الوصفين المحمودين، وآناء الليل ساعات الليل، أوله، ووسطه، وآخره، وفي هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل لأنه استر عن العيون فيكون أبعد من الرياء ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ أي يخاف من عذاب الآخرة ﴿وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فينجو بذلك مما يحذره، ويفوز بما يرجوه، ودلت الآية الكريمة على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته ويحذر عقابه، . روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب، وهو في حالة الموت، فقال له: كيف تجددك؟ قال: أرجو الله يا رسول الله، وأخاف ذنوبي، فقال ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو منه، وآمنه مما يخاف»^(١) والرجاء إذا جاوز حده يكون أمناً، والخوف إذا جاوز حدّه يكون يأساً، وكلاهما محذور، قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لَا يَنبَأُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢) ﴿قُلْ﴾ بياناً للحق، وتنبيهاً على شرف العلم والعمل ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ أي يعلمون حقائق الأحوال، كالقانت المذكور، والذين لا يعلمون شيئاً ما، وقيل هو وارد على سبيل التشبيه، أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون، لا يستوي القانتون والعاصون، بدأ الآية بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين، وأنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل، إنما يفيد إذا واطب عليه الإنسان، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم، قال صاحب الكشاف أراد ﴿الذين يعلمون﴾ الذين سبق ذكرهم،

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٩٨٣ في الجنائز، وابن ماجه رقم ٤٢٦١ في الزهد.

(٢) سورة يوسف، آية: ٨٧.

وهم القاتنون، وهو تنبيه على أن من لم يعمل فهو غير عالم، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يعملون بها، فهم عند الله جهلة ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي إنما يتعظ بهذا أصحاب العقول، الخالصة عن شوائب الخلل .

﴿ قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ائْتُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١١)

﴿ قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أمر رسول الله ﷺ بتذكير المؤمنين، وحملهم على التقوى، وفيه تشریف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة، ومزيد اعتناء بشأن الأمور به، فإن نقل عين أمر الله تعالى، أدخل في إيجاب الامتثال به ﴿ ائْتُوا رَبَّكُمْ ﴾ بامثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ تعليل للأمر، أي لمن أحسن عمله وسار في طريق الهداية ﴿ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص، وهو الذي عبر عنه ﷺ حين سئل عن الإحسان، بقوله: أن تعبد الله كأنك تراه ﴿ حَسَنَةً ﴾ أي حسنة عظيمة، وهي الجنة ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ ﴾ فمن تعسر عليه التوفر على التقوى والإحسان في وطنه، فليهاجر الى حيث يتمكن فيه، كما هو سنة الأنبياء والصالحين، فإنه لا عذر له في التفريط أصلاً ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ ﴾ ترغيب في التقوى الأمور بها، أي إنما يوفى الذين صبروا على دينهم، وحافظوا على حدوده، ولم يفرطوا في مراعاة حقوقه ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ بمقابلة ما كابدوا من الصبر ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا يحصى ولا يُحصَر .

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ (١١)

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أي عن كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك، قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للرسول ﷺ: ما

يحملك على هذا الدين، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات ملتك؟
فأنزل الله هذه الآية.

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٦)

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي وأمرت بذلك لأجل أن أكون
مقدمهم في الدنيا والآخرة، كأنه ﷺ يقول: إني لست من الملوك الذين
يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك، بل كل ما أمرتكم به، فأنا أول
الناس شروعاً فيه، وأكثرهم مداومة عليه.

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٧)

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بترك الإخلاص، والميل إلى ما أنتم عليه
من الشرك ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة، وصف بالعظمة لعظمة ما فيه،
من الدواهي والأهوال، والمقصود منه زجر الغير عن المعاصي، لأنه ﷺ
مع جلالته قدره، إذا كان خائفاً من المعاصي فغيره أولى.

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لِّدِينِي ﴾ (١٨)

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لِّدِينِي ﴾ أمر ﷺ بالإخبار بامتثاله للأمر، إظهاراً
لتصلبه في الدين، وحسماً لأطماعهم، وتمهيداً لتهديدهم، فإن قيل: ما
معنى التكرير؟ قلنا: هذا ليس بتكرار، لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة
الله تعالى بالعبادة، والثاني إخبار بأنه لا يعبد غير الله، لأن قوله: ﴿ أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴾ لا يفيد الحصر، وقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ ﴾ يفيد الحصر، يعني
الله أعبد لا أعبد أحداً سواه.

﴿ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (١٩)

﴿ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أن تعبدوه ﴿ مِّنْ دُونِي ﴾ تعالى، وليس أمراً، بل المراد الزجر والتوبيخ، وقيل له ﷺ: خالفت دين آبائك، فقد خسرت، فنزلت ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَيْرِينَ ﴾ أي الكاملين في الخسران ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالضلال، ﴿ وَأَهْلِيَهُمْ ﴾ بالإضلال، باختيار الكفر بدل الإيمان، أي أضاعوهما ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ حين يدخلون النار، حيث عرضوهما للعذاب السرمدي ﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ أي هو الخسران الواضح الفادح الذي لا خسران مثله، وفي تصديرها بحرف التنبيه، والإشارة بذلك، وتوسيط ضمير الفصل، وتعريف الخسران، ووصفه بالمبين، مبالغة خالدة للتنفير عن عبادة غير الله.

﴿ لَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يُعْبَادُونَ فَاتَّقُونِ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ لَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ نوع بيان لخسرانهم، بعد تهويله بطريق الإبهام، أي لهم كائن من فوقهم ظلل كثيرة متراكمة، بعضها فوق بعض، كائنة ﴿ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ﴾ أيضاً ﴿ ظُلَلٌ ﴾ هي في الدرجات للآخرين، أي أطباق كثيرة بعضها تحت بعض، والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب، ونظيرها قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ (١) ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي العذاب الفظيع الذي ﴿ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ ويحذرهم إياه، بآيات الوعيد، ليجتنبوا مما يوقعهم فيه ﴿ يُعْبَادُونَ فَاتَّقُونِ ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي.

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ ﴿١٧﴾ .

(١) سورة الأعراف، آية: ٤١ .

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ﴾ المراد به الشيطان، وقيل: الأصنام، والأوثان، وكلُّ ما يعبد من دون الرحمن ﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتغال منه ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي أقبلوا إليه معرضين عما سواه ﴿هُمُ الْبَشَرِيُّ﴾ بالثواب على السنة الرسل من الملائكة عند حضور الموت، وعند الوضع في القبر، وعند الحشر، وعند الدخول في الجنة، بالروح والراحة والريحان، وهذه البشارة تكون بزوال المكروهات، وبحصول المرادات، قال الله تعالى: ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ أي بشرهم بالنعيم المقيم في دار الجنان.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ .

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ هم الموصوفون بالاجتناب والإنابة بأعيانهم، لكن وضع عباد موضع ضميرهم، تشريفاً لهم بالإضافة إليه سبحانه، فإذا اعترضهم أمران: واجبٌ وندب اختاروا الواجب، حرصاً على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثواباً، أو يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن، أما في المعاملات مثل أنه تعالى شرع القصاص، والدية، والعفو، فيؤثرون العفو، لأنه تعالى قال: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو الرجل يجلس مع القوم، ويسمع الحديث فيه محاسنٌ ومساوئ، فيحدث بأحسن ما سمع، ويترك ما سواه ﴿أُولَئِكَ﴾ المنعوتون بالمحاسن الجميلة ﴿الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ للدين الحق ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي هم أصحاب العقول السليمة، المستحقون للهداية، لا غيرهم من المكذبين الضالين.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ .

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾؟ هم عبدة الطاغوت،

كما يلوح به التعبير عنهم بمن ﴿حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ فإن المراد بها قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الخ وضع موضع الضمير ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ للتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب، بمنزلة الواقع في النار، وأن اجتهاده ﷺ في دعائهم إلى الإيمان، سعي في إنقاذهم من النار.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ (٢١).

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ﴾ أي لهم درجات عالية في جنات النعيم، بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة في الجحيم، أي لهم علالي بعضها فوق بعض ﴿مَّبْنِيَةٌ﴾ محكمة البناء، يعني الغرف العالية وإن كانت فوق بعضها، لكنها في القوة والشدة متينة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ من غير تفاوت بين العلوّ والسفل ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد، أي وعدهم الله وعداً ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ لأن خُلف الوعد نقصٌ، استحال عليه سبحانه، روي عن أبي سعيد الخدري عن الرسول ﷺ أنه قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدرّي، الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم، فقالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدّقوا المرسلين»^(١) قوله الغابر: أي الباقي في الأفق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تمثيل الحياة الدنيا في سرعة

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٣٦٦/١١ ومسلم رقم ٢٨٣٠ في الجنة.

الزوال، تحذيراً من الاغترار بزهرتها، بإنزال الماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى ﴿فَسَلَكَهُ﴾ أي فأدخله ﴿يَنْبِيعُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي عيوناً ومجاري كالعروق في الأجساد، نابعة فيها ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي يخرج بهذا الماء، أنواع الزروع، والفواكه، والثمار، كما يخرج به أنواع الحبوب، من بر وشعير وغيرهما ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ﴾ أي يتم جفافه ويشرف أن يثور من منابته ﴿فَكَرَنَهُ مُصْفَرًّا﴾ من بعد خضرته ونضرتة ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا﴾ فتاتاً متكسرة، كأن لم يغن بالأمس ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿لَذِكْرِي﴾ لتذكيراً عظيماً ﴿لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوب الخلل، يتذكرون بذلك فلا يغترون ببهجتها، ويجزمون على قدرة الله على كل شيء، والحطام: ما يجفُّ ويتفتت، ويكسر من النبات.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۗ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ شرح الصدر: عبارة عن تنوره بنور الإسلام، فإن الصدر محل للقلب، الذي هو منبع الروح، فانشراحه مستدع لاتساع القلب، واستضاءته بنوره ﴿فَهُوَ﴾ بموجب ذلك ﴿عَلَى نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ هو اللطف الإلهي الفائض عليه، عند مشاهدة الآيات التكوينية، والتنزيلية، والتوفيق للاهتمام بها إلى الحق ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ من أجل ذكره، وهو أبلغ من أن يكون «عن ذكر الله» لأن القاسي من أجل الشيء، أشد تأبياً من قبوله من القاسي عنه، أي إذا ذكر الله عندهم أو آياته، اشمازوا من أجله، وازدادت قلوبهم قساوة، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أي بعيد عن الحق ﴿مُبِينٍ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً، والنفس إذا كانت خبيثة، فسماعها لذكر الله لا يزيداها إلا قسوة، كحرارة الشمس تلين الشمع، وتعقد الملح، فكذلك القرآن يلين قلوب المؤمنين. عند سماعه، ولا يزيد الكافر إلا قسوة وغلظة.

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَشِعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ هو القرآن الكريم أحسن الحديث لفظاً ومعنى، ليس من جنس الشعر، ولا من جنس الخطب، ولا من جنس الرسائل، بل نوع يخالف الكل، وكل ذي طبع سليم، يستطيه ويستلذه ﴿ كِتَابًا مُتَشَبِهًا ﴾ أي تشابه معانيه في الصحة والأحكام، وتناسب ألفاظه في الفصاحة والبيان، وتكامل نظمه في الإيجاز والإعجاز ﴿ مَثَانِي ﴾ هو جمع مثني بمعنى مردّد ومكرّر، لما ثنّى قصصه وأنبأه، وأوامره ونواهيته، فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين، مثل الأمر والنهي، والعام والخاص، والمجمل والمفصل، والجنة والنار، ونحو ذلك، وقيل: لأنه يثنى في التلاوة ﴿ نَقَشِعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي تضطرب وتفرع خوفاً مما فيه من الوعيد، روي عن العباس أن النبي ﷺ قال: «إذا اقشعر جلد المؤمن من خيفة الله، تحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها» ﴿ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي إذا ذكرت آيات الوعيد اقشعرت جلود الخائفين من الله، وإذا ذكرت آيات الوعد والرحمة لانت جلودهم وسكنت قلوبهم، قال قتادة: هذا نعت أولياء الله، الذين نعتهم الله به، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان، وروي عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر الصديق: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، قال عبد الله: فقلت لها: إن ناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن، خرّ أحدهم مغشياً عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، روي أن ابن عمر مرّ برجل ساقط، فقال: ما بال هذا قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن يسقط فقال ابن عمر: إنّنا لنخشى الله وما نسقط! ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي

الكتاب الذي شرح أحواله ﴿ هُدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أن يهديه بصرف مقدوره إلى الاهتداء ﴿ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ ﴾ أي يخلق فيه الضلالة بصرف قدرته إلى مبادئها، وإعراضه عما يرشده إلى الحق ﴿ فَمَا لَهُم مِّن هَادٍ ﴾ يخلصه من الضلال.

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (٢٤).

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ حذف الخبر كما حذف في نظائره، والتقدير: أفمن يتقي بوجهه شدة العذاب، كمن أمِنَ من العذاب؟ والإنسان إذا لقي مخوفاً استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه، لأنه أعز أعضائه، والذي يُلقى في النار، يُلقى مغلولة يده إلى عنقه، فلا قدرة له على الانتقاء أصلاً إلا بوجهه، وهذا أشع أنواع العذاب ﴿ وَقِيلَ ﴾ من جهة خزانة النار ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي لهم، وضع المظهر للتسجيل عليهم بالظلم ﴿ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا على الدوام، من الكفر والمعاصي.

﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَآَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٥).

أي من قبل كفار قريش، أي كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة ﴿ فَآَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي من الجهة التي لا يحتسبونها، ولا يخطر ببالهم إتيان الشر منها.

﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦).

﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ ﴾ أي الذل والصغار ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ كالقتل

والإجلاء، ونحو ذلك من فنون النكال ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعدُّ لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدته ودوامه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً لعلمو ذلك، واعتبروا به.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ﴾ (٢٧).

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمور الدين ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ﴾ كي يتذكروا به، ويتعظوا ببيانه.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨).

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي لا اختلال ولا تناقض فيه، فهو أبلغ من المستقيم، وقيل: المراد بالعوج الشك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يخافون عقاب الله، كما قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩).

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ للموحد والمشارك، إيراد الأمثال القرآنية، للتذكر والاعتاظ بها، وتحصيل التقوى أي جعل الله تعالى مثلاً للمشارك ﴿رَجُلًا﴾ أي عبداً ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ أي يتشارك في هذا العبد جماعة ﴿مُتَشَكِّسُونَ﴾ متنازعون، متخالفون، يأمر هذا بشيء، وينهى ذلك عنه، والشكس: السيء الخلق، المخالف للناس، ولا يرضى بالإنصاف، وهذا مثل المشارك، يعبد آلهة شتى ﴿وَرَجُلًا﴾ أي وجعل للموحد مثلاً عبداً ﴿سَلَمًا﴾ خالصاً ﴿لِرَجُلٍ﴾ لفرد معين ليس لغيره عليه سبيل أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي صفة وحالاً، وهو إنكار واستبعاد لاستوائهما لأن العبد المشترك فيه، لا

يدرِي أيهم يُرضي بخدمته، وعلى أيهم يعتمد، فهو في التحير وتوزع قلبه، ومن كان له سيد واحد، فهمُّه واحد، وقلبه مجتمع ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية إنما هو بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة، موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، مع كمال ظهوره، فيبقون في ورطة الشرك والضلال.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمِيَّتُونَ﴾ (٣٠).

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي ستموت، فلا خلود لأحد في الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ مَمِيَّتُونَ﴾ سيموتون، أي إنكم جميعاً في صدد الموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِمُونَ﴾ (٣١).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ، وهم قد لجؤا في المكابرة والعناد في الدنيا، وقيل: المراد الاختصاص العام بين الأنام، عن عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه قال لما نزلت: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير: «يا رسول الله أنكون على الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: نعم»^(١) وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال: كنا نقول: «ربنا واحد، وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلمَّا كان يوم صفين، وشدَّ بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا نعم هو هذا».

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٢).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي هو أظلم من كل ظالم، من

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٢٣٦ وفيه: فقال الزبير: إن الأمر إذاً لشديد.

افترى على الله سبحانه كذباً، بأن أضاف إليه الشريك والولد ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ أي بالأمر الذي هو عين الحق ونفس الصدق، وهو ما جاء به الرسول ﷺ ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ أي في أول مجيئه، من غير تدبر فيه ولا تأمل ﴿الَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي أليس لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا إلى التكذيب، مأوى ومسكن في جهنم؟ بالصدق في أول الأمر.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هو الرسول ﷺ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي الموضوعون بما ذكر من المجيء بالصدق، والتصديق به، هم المنعوتون بالتقوى التي هي أجلّ الرغائب.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جِزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم كل ما يشاؤون، في الآخرة، لا في الجنة كما قيل، لما أن بعض ما يشاؤون من تكفير السيئات، والأمن من الفزع الأكبر، وسائر أهوال القيامة، إنما يقع قبل دخول الجنة ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من حصول كل ما يشاؤون ﴿جِزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي وعدهم الله زوال المضار، وحصول المسار، ليكفر عنهم بموجب ذلك ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ خصَّ الأسوأ للمبالغة، أي أعمالهم السيئة مهما عظمت، ويجوز أن يكون بمعنى السيء، أي يكفر عنهم الأعمال السيئة ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أي ويعطيهم ثوابهم، بأفضل محاسن أعمالهم، زيادة للأجر، لفرط إخلاصهم فيها.

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ استفهام إنكار للنفي، مبالغة في الإثبات كأن الكفاية من التحقق والظهور، بحيث لا يقدر أحد على أن ينكرها والمراد بالعبد رسول الله ﷺ، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ، عما قالت له قريش: إِنَّا نَخَافُ أَنْ تُخْبِلَكَ آلِهَتُنَا، ويصيبك مضرتها، كما قال قوم هود لنبِيِّهِمْ: ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي الأوثان التي اتخذوها آلهة، من دون الله تعالى ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ ﴾ أي يضلله عن طريق الهدى ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى الحق .

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ يصرفه عن مقصده، إذ لا راد لفعله، ولا معارض لإرادته، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ﴾ غالب لا يُغَالِبُ ﴿ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ من أعدائه .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ إِنْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لوضوح الدليل على تفرده بالخالقية ﴿ قُلْ ﴾ تبكيئاً لهم ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ﴾

اللَّهُ يَضُرُّ هَلْ هُنَّ كَشَفَتْ ضُرَّوهُ ﴿٤٠﴾ أي بعدما تحققتم أن خالق العالم هو الله عزَّ وجلَّ، فأخبروني عن آلهتكم إن أرادني الله بضر، هل هنَّ يكشفن عني ذلك الضر؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أي أرادني بنفع ﴿هَلْ هُنَّ مُمَسِكَتُ رَحْمَتَهُ﴾؟ فيمنعها عني؟ وتعليق الضر والرحمة بنفسه ﷺ، للرد في نحورهم، حيث كانوا خَوْفوه مضررة الأوثان ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ في جميع أموري ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا على غيره أصلاً، لعلمهم بأن كل ما سواه، تحت ملكوته تعالى.

﴿قُلْ يَلْقَوهُمْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٩).

﴿قُلْ يَلْقَوهُمْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ أي على مكاتي، فحذف للاختصار، وللإشعار بأن حاله ﷺ لا تزال تزداد قوة، بنصر الله وتأييده، ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم، بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أينما الضالُّ؟.

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٤٠).

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإن خزي أعدائه، دليلُ غلبته ﷺ، وقد أخزاهم الله تعالى في الدنيا، كما في يوم بدر وغيره ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم، وهو عذاب النار، والمقصود التخويف.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ أِهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِوَكِيلٍ﴾ (٤١).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾ أي لأجلهم، فإنه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً به ﴿فَمَنِ أِهْتَدَىٰ﴾ بأن عمل فيه

﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي إنما نفع به نفسه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ بأن لم يعمل بموجبه ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ لما أن وبال ضلاله مقصورٌ عليها ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ لتجبرهم على الهدى، وما وظيفتك إلا البلاغ.

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكِ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ أي يقبضها من الأبدان، بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها، إما ظاهراً وباطناً كما عند الموت، أو ظاهراً فقط كما عند النوم ﴿ فِيمِمْسِكِ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ ولا يردّها إلى البدن ﴿ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ ﴾ أي النائمة إلى بدنّها عند التيقظ ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو المضروب لموته، قيل: لكل إنسانِ نفسان: نفسٌ بها الحياة، ونفسٌ بها التمييز، فالتّي تُتَوَفَّى في المنام هي نفس التمييز، لا نفس الحياة، إذ لوزالت لزال معها التنفس، والنائم يتنفس ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من التوفي ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى، وحكمته، ورحمته ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في جلال الله وعظمته وقدرته، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد، إلا أن الموت انقطاع تام، والنوم انقطاع ناقص، ومثل هذه التدايير لا يمكن أن تكون إلا عن تدبير القادر، العليم، الحكيم.

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ أَوْلُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا ﴾ أي بل اتخذ الكفار ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ من دونه تعالى ﴿ شُفَعَاءَ ﴾ تشفع لهم عنده تعالى ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله ﴿ أَوْلُوا ﴾ أَوْلُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ؟ أي قل لهم أتتخذونها شفعاء، ولو كانوا لا

يملكون شيئاً من الأشياء، ولا عقل لهم؟ وجواب «لو» محذوف لدلالة المذكور عليه.

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ أي هو مالكها، لا يستطيع أحد شفاعته ما، إلا أن يكون المشفوع له مرضياً عنه والشفيع مأذوناً له وكلاهما مفقود ههنا ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير له وتأکید، أي له ملكهما وما فيهما، لا يملك أحد أن يتكلم في أمر بدون إذنه ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة لا إلى أحد سواه.

﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ دون آلهتهم ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ونفرت، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نَفُورًا﴾ ﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ فرادى مع ذكر الله تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفرط افتتانهم بها، ونسيانهم حق الله تعالى، ولقد بولغ في بيان حالتهم حيث إن الاستبشار هو أن يمتلىء القلب سروراً حتى تنبسط له بشرة الوجه، والاشمئزاز أن يمتلىء غيظاً وغماً حتى ينقبض جلد وجهه.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ
بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي التجيء إليه

تعالى بالدعاء، إذا تحيرت في أمر الدعوة، وضجرت من شدة المكابرة والعدا، فإنه القادر على الأشياء بجملتها ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الهدى والضلالة، وهذا يشمل كل مكابر ومعاند، وكل مؤمن وجاحد، عن أبي سلمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها أي شيء كان نبي الله ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: «اللهم رب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك، فيما كانوا فيه يختلفون، فاهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ أي لو كان لهم جميع ما في الأرض من الأموال ومثله معه ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب، وهيهات أن ينفعهم ذلك، وهذا وعيد شديد ﴿ وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي ظهر لهم من فنون العقوبات، ما لم يكن في حسابهم، ولم يخطر على بالهم.

﴿ وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿ وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ سيئات أعمالهم حين تعرض عليهم

(١) الحديث أخرجه مسلم.

صحائفهم ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أي أحاط بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي جزاؤه .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ إخبار عن الجنس بما يفعله غالب أفرادها، أي أنهم يشتمزون عن ذكر الله تعالى، فإذا مسهم ضرر دعوا من أشمازوا عن ذكره ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ أعطيناه إياها تفضلاً ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي على علم مني بوجوه كسبه، أو أعطاه لما علم أني له أهل ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي محنة، وابتلاء، واستدراج، وهو رد لما قاله، وتغيير السبك للمبالغة فيه، والإيذان بأن ذلك ليس من باب الإيتاء المنبئ عن الكرامة ﴿ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الأمر كذلك، وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان هو الجنس .

﴿ قَدْ قَالهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَخْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

﴿ قَدْ قَالهَا ﴾ الضمير لقوله: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ كقارون حيث قال: ﴿ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ ﴿ فَمَا أَخْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من متاع الدنيا .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ جزاء سيئات أعمالهم ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ المشركين، أو المفرطون في الظلم والعتو ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ كما أصاب أولئك، والسين للتأكيد، وقد أصابهم حيث فُحطوا

سبع سنين، وقتل صناديدهم يوم بدر ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي فائتين من عذاب الله، لأن مرجعهم إليه تعالى.

﴿أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿أَوْلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي أقالوا ذلك ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات دالة على أن كل ما يحدث بتقدير الله جل وعلا، كما قال الشاعر:

فَلَا السَّعْدُ يَقْضِي بِهِ الْمُشْتَرِي وَلَا النَّحْسُ يَقْضِي عَلَيْنَا زَحْلٌ
وَلَكِنَّهُ حُكْمُ رَبِّ السَّمَاءِ وَقَاضِي الْقَضَاةِ تَعَالَى وَجَلٌ

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أفرطوا في الجناية عليها، بالإسراف في المعاصي، وإضافة العباد إليه لتخصيص المؤمنين به، على ما هو عرف القرآن الكريم ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لمن يشاء فيما عدا الشرك ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ يستر عظام الذنوب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بكشف فظائع الكروب، والآية دالة على كمال الرحمة والغفران، نسأل الله تعالى الفوز بها، والنجاة من العصيان بفضلته ورحمته.

﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لِمِمَّن قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أي اخلصوا له العمل ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي تمنعون منه .

﴿ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعَثَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .

﴿ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي اتبعوا القرآن العظيم، بامثال أوامره، واجتناب نواهيه، والزموا هديه، فهو أحسن كتاب أنزل إليكم من ربكم ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعَثَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ بمجيئه، لتتداركوا وتأتھبوا له .

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾ .

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي ﴾ بالألف بدلاً من ياء الإضافة، أي، احضري هذا أوان حضورك ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ ﴾ أي على تفريطي وتقصيري ﴿ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ أي في جانبه، وفي حقه وطاعته ﴿ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾ أي المستهزئين بدين الله وأهله، أي فرطت وأنا ساخر .

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ﴾ بالإرشاد إلى الحق ﴿ لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي الشرك والمعاصي .

﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنِّي لِي كَرَّةٌ ﴾ أي رجعة إلى الدنيا
 ﴿ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ في العقيدة والعمل و«أو» للدلالة على أنه لا يخلو
 عن هذه الأقوال، تحسراً وتعللاً، بما لا طائل تحته وقوله تعالى:

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ
 الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ۞ .

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴾ رد
 من الله تعالى عليه، أي قد جاءتك آياتي، وبينت لك الهداية من الغواية،
 لكن تركت ذلك، واستكبرت عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى، فلا
 عذر لك .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي
 جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ۞ .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ ٱللَّهِ ﴾ بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه
 تعالى كاتخاذ الولد ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ بما ينالهم من الشدة والهول،
 والذل والخزي ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾؟ أي منزل ومقام ﴿ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾
 عن الإيمان والطاعة؟ بلى لهم مسكن ومأوى في دار الجحيم .

﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَقَآرِنِهِمْ ۖ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ۞ .

﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ عن الشرك والمعصية أي ينجيهم من جهنم
 ﴿ بِمَقَآرِنِهِمْ ﴾ بفلاحهم وفوزهم بما يشتهون، أي ينجيهم الله تعالى من
 مشوى المتكبرين، ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ أي لا

يصيبهم الهلع والجزع، ولا تمسهم نار جهنم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يمس أبدانهم أذى، ولا قلوبهم حزن.

﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿١١﴾

﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي خالق جميع الأشياء، وموجد جميع المخلوقات، وكل شيء يجري من خير وشر، وإيمان وكفر، بقضاء منه، لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لأسبابها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولى التصرف فيه كيفما يشاء.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٢﴾

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لا يملك أمرها، ولا يتمكن من التصرف فيها غيره، لأن الخزائن لا يتصرف فيها، إلا من بيده مفاتيح الخزائن، والمقاليد هي المفاتيح جمع مقلاد وهو المفتاح ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المعنى: إن الله تعالى هو الخالق لجميع الأشياء، والمتصرف فيها كيفما يشاء، بيده مقاليد العالم العلوي والسفلي، والذين كفروا بآياته التكوينية والتنزيلية هم الخاسرون أشد الخسران، لأنهم باعوا آخرتهم بدنياهم.

﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ بِعِبَادِهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿١٤﴾

﴿قُلْ﴾ لمن دعاك إلى دين آباءك ﴿أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ بِعِبَادِهَا الْجَاهِلُونَ﴾ أي أبعدهم مشاهدة هذه الآيات، غير الله أعبد؟ و ﴿تَأْمُرُونَ﴾ اعتراض، للدلالة على أنهم أمره به، لفرط غباوتهم، وقد وصفهم بالجهل، لأن الدليل القاطع، قد قام بأنه تعالى هو المستحق للعبادة لا غيره، فمن عبد غيره بعد ذلك فهو جاهل.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
وَلَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ من الرسل ﴿ لَئِن أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ
عَمَلُكَ وَلَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ كلام وارد على طريقة الفرض، لتهديج الرسل
عليهم السلام، وإقنات الكفرة، والإيذان بشناعة الإشراك، والخطاب
للنبي ﷺ، والمراد به الناس، أو أمته الذين آمنوا به، تخويفاً لهم من
عقوبة الإشراك.

﴿ بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ۞ .

﴿ بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ ﴾ ردُّ لما أمره به ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لإنعام ربك
عليك بنعمة الإيمان والقرآن.

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ۞ .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما قدروا عظمته تعالى، ولا عظموه حق
تعظيمه، حيث جعلوا له شريكاً، هذه الأشياء الخسيسة، ووصفوه بما لا
يليق بشؤونه الجليلة ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ
مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ تنبيه على عظمته، وكمال قدرته، ودلالة على أن
تخريب العالم أهون شيء عليه، على طريقة التمثيل والتخييل، فالكون كله
خاضع لإرادته وتدبيره، كقولهم شابت لمة الليل، والقبضة المرة من
القبض، وهي المقدار المقبوض بالكف ﴿ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي
تنزه عن الشريك والنظير، والزوجة والولد.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ أي فإذا جميع الخلائق الأموات، يقومون من القبور، ينظرون إلى الحشر الأكبر.

﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالتَّيِّبِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ ﴾ ليس هي التي تقعد عليها الآن، بدليل قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ بل هي أرض أخرى، يخلقها الله تعالى، لمحفل يوم القيامة ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقام فيها من العدل، سماه نوراً لأنه يزين البقاع، ويظهر الحقوق، كما يسمى الظلم ظلمة، أو بنورٍ خلّقه فيها، بلا توسط أجسام مضيئة، ولذلك أضيف إلى الاسم الجليل، كبيت الله، وأراد بالأرض عرصات القيامة ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ الحساب والجزاء وصحائف الأعمال ﴿وَجِئَتْ بِالتَّيِّبِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم، من الملائكة والمؤمنين ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بين العباد بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب.

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي جزاء أعمالها، من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يفوته شيء من أفعالهم.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ ۖ ﴾

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ أي سيقوا إليها بالعنف والإهانة، أفواجاً متفرقة، والرُّمُرُ: جمع زمرة وهي الجماعة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ وكانت قبل ذلك مغلقة، فتحت فجأة لتستقبلهم ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ توبيخاً، والخزنة: حفظة جهنم وهم الملائكة الموكِّلون بتعذيب أهلها ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾؟ أي من جنسكم من البشر ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾؟ أي وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار، واستعمال لفظ يوم في أوقات الشدة مستفيض، وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع، لأنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل، وتبليغ الكتب ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أتونا وتلوا علينا وأنذرونا ﴿ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴾ حيث قال الله تعالى لإبليس: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقد كنا ممن تبعه، كذَّبنا الرسل، وقلنا: ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا تكذبون.

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِيمَا فِئَسَ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾ ۖ ﴾

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِيمَا فِئَسَ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي بسَّت جهنم منزلاً ومأوى للمتكبرين، عن الإيمان بالله وتصديق رسوله.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٧﴾ ۖ ﴾

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ مساق إعزاز وتشريف للإسراع بهم إلى دار الكرامة، وقيل: سيقت مراكبهم، إذ لا يُذهب بهم إلا راكبين، ﴿ زُمَرًا ﴾ أي متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل، وعلو الطبقة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ وجواب «إذا» محذوف للإيدان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات ما لا يحيط به البيان، وفيه دليل على أن أبواب الجنة، تفتح لهم قبل مجيئهم، كأنه قيل: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها، بدليل قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ (١) ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ ﴾ من جميع المكاره والآلام ﴿ طَبَّتُمْ ﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي، أو طبتم نفساً بما أتيح لكم من النعيم ﴿ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ أي ادخلوا جنة النعيم والخلود، ماكثين فيها أبداً دون خروج ولا انتهاء.

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٧٦)

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدَّهُ ﴾ بالبعث والثواب ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه، أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه ﴿ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ أي يتبوا كل واحد منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة، على أن فيها مقامات معنوية لا يتماع واردة ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ أي نعم ثواب المطيعين الجنة.

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧٥)

(١) سورة ص، آية: ٥٠.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ﴾ أي محققين، محيطين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ بحافته وجوانبه ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي ينزهونه تعالى عما لا يليق به، ملتبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ذاكرين له تعالى بوصفي جلاله واكرامه، تلذذاً به، وفيه إشعار بأن أقصى درجات العليين، وأعلى لذائذهم، هو الاستغراق في شؤونه عز وجل ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بين الخلق، بإدخال بعضهم الجنة، وبعضهم النار ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على ما قضى بيننا بالحق، والقائلون هم المؤمنون، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَخِرُّ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والله أعلم بمراده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه جل وعلا تفسير سورة الزمر»

سُورَةُ الْعَاقِلَةِ

مكية وآيها خمس وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ﴿حَم﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ .

﴿حَم﴾ بتفخيم الألف وتسكين الميم وهو اسم للسورة.
 ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ سائر ذنب المؤمنين، الغفر: هو الستر، أي يستر ذنب المسيء، ويتوب على التائب، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ والتوب مصدر كالتوبة ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ على المخالفين ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ ذي الفضل والإنعام على العارفين، والطول: الفضل بترك العقاب المستحق، والإنعام الذي تطول مدته على صاحبه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، فهو الموصوف بالوحدانية، التي لا يوصف بها غيره، فيجب الإقبال على طاعته، في أوامره، ونواهيه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فحسب، لا إلى غيره، فيجازي كلاً من المطيع والعاصي بما يستحقه.

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي
الْيَلْدِ ﴾ .

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي بالظعن فيها، واستعمال المقدمات الباطلة، لإدحاض الحق كقوله تعالى بعده ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بها، وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة، فضلاً عن الظعن فيها، وأما الجدال فيها بحل مشكلاتها، وكشف معضلاتها، واستنباط حقائقها، وتوضيح مناهج الحق، وإبطال شبه أهل الزيغ والضلال، فمن أعظم الطاعات، وأكبر جهاد في سبيل الله^(١) والمقصود بالآية الأول، وهو الاختلاف والظعن في آيات الله بإثارة الشبه، كما روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال ﷺ: «إنما هلك من كان قبلكم، باختلافهم في الكتاب»^(٢) ﴿ فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْيَلْدِ ﴾ أي فلا يغرك إمهالهم، وإقبالهم في دنياهم، وتقلبهم في أسفارهم بالتجارات المربحة، فإنهم مأخوذون عن قريب.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي الذين تحزبوا على الرسل، وناصرهم العدا، وهم عاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم

(١) الجدال في القرآن نوعان: جدال في تقرير الحق، وإبطال شبه الضالين، فهو جهاد وعمل ممدوح، وهو حرفة الأنبياء، قال تعالى: ﴿ وَجَادَلِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وجدال لتقرير الباطل، وبث الشبه والأباطيل، وهذا هو المراد بالآية هنا، وهو جدال الكفرة في الآيات.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٢٦٦٦ باب النهي عن المتشابه في القرآن.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من تلك الأمم العاتية ﴿بِرِسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا منه، فيصيبوا به ما أرادوا، ويبطشوا به وبأتباعه، من تعذيب أو قتل، من الأخذ بمعنى الأسر ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ الذي لا حقيقة له أصلاً ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أي ليبطلوا ويزيلوا به ﴿الْحَقَّ﴾ الذي جاء به الرسل صلوات الله عليهم ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ بسبب ذلك أخذ عزيز مقتدر، بالهلاك السريع ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟ أي فكيف كان عقابي الذي عاقبتهم به؟ فإن آثار دمارهم عبرة للناظرين.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كما وجب وثبت حكمه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذبة المتحزبة على رسلهم، وجب أيضاً ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي كفروا بك وتحزبوا عليك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي لأنهم مستحقو أشد العقوبات وأقطعها، التي هي عذاب النار أبداً. روي أن عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب يعني الخمر، فقال عمر لكتابه: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام عليك، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمَّ﴾. تنزيل الكتاب» إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ وختم الكتاب، وقال لرسوله لا تدفعه إليه حتى تجده صاحباً، ثم أمر مَنْ عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: وعدني الله أن يغفر لي، وحدّثني من عقابه، فلم يبرح يردّها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النزوع والترك، وحسنت توبته، فلما بلغ عمر أمره، قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحاكم زلّ، فسدّدوه، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوان الشياطين عليه»^(١).

(١) انظر كتاب سيرة عمر بن الخطاب للشيخ الطنطاوي.

﴿ الَّذِينَ يَجْلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يَجْلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ وهم سادة الملائكة، وحملهم إياه حفظهم وتدبيرهم له كما قال سبحانه: ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ينزهون الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، حامدين له على نعمائه، والجملة استئناف مسوق للتسلية، ببيان أن أشرف الملائكة، مشابرون على ولاية الرسول والمؤمنين، ونصرتهم، كأنه تعالى يقول: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ يَبَالِغُونَ فِي الْعَدَاوَةِ، فَلَا تَبَالٍ بِهِمْ، فَإِنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ، وَمَنْ حَوْلَهُ مَعَكَ، وَيَبَالِغُونَ فِي إِظْهَارِ الْمَحَبَةِ وَالنَّصْرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إيماناً حقيقياً، والتصريح به لإظهار فضيلة الإيمان، وإبراز شرف أهله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فَإِنَّ الْمَشَارَكَةَ فِي الْإِيمَانِ، أَقْوَى الْمُنَاسَبَاتِ وَأَتَمَّهَا، وَأَدْعَى الدَّوَاعِيَ إِلَى النَّصْحِ وَالشَّفَقَةِ ﴿ رَبَّنَا ﴾ على إرادة القول، أي يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أي وسعت رحمك وعلمك كل شيء، وفي وصفه تعالى بالرحمة والعلم، مزيدٌ تعظيم للرب جلَّ وعلا وتقديم الرحمة، لأنها المقصودة بالذات هنا ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ أي الذين علمت منهم التوبة الصادقة، واتباع سبيل الحق ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ واحفظهم من نار جهنم.

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ ﴾ عطف على فهم ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أي صلاحاً مصححاً لدخول الجنة في

الجملة، وإن كان دون صلاح أصولهم، أي وأدخل معهم هؤلاء، ليتم سرورهم بهم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور ﴿الْحَكِيمُ﴾ أي الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي العقوبات عقوبات المعاصي، بمعنى احفظهم من فعل المعاصي، وهو تعميم بعد تخصيص ﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أي ومن تقه المعاصي في الدنيا، فقد رحمته في الآخرة ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى دخول الجنة، والوقاية من نار الجحيم ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا مطمع وراءه لطامع.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ شروع في بيان أحوال الكفرة بعد دخولهم النار، وهم الذين يجادلون في آيات الله ﴿ يُنَادُونَ ﴾ أي من مكان بعيد، وهم في النار، والمنادي هم خزنة جهنم، يقولون لأهل النار، وقد مقت بعضهم بعضاً، بسبب الضلال والإضلال، ولعن بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ﴾^(١) فيقال عند ذلك لهم: ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ المقت: أشدُّ البغض، أي لبغض الله الشديد لكم في الدنيا، أعظم من بغضكم اليوم لأنفسكم ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ ﴾ أي حين كنتم تدعون من جهة الأنبياء ﴿ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ اتباعاً لأهوائكم، واقتداءً لأخلائكم المضلين.

(١) سورة العنكبوت، آية: ٥٥.

﴿ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آئِنِّيْنَ وَأَحْيَيْتَنَا آئِنِّيْنَ فَأَعْرَفْنَا بِدُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آئِنِّيْنَ وَأَحْيَيْتَنَا آئِنِّيْنَ ﴾ أي إمامتين، وإحياءتين، أو موتيتين وحياتين، أرادوا بالإماتة الأولى خلقهم أمواتاً، كما في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ (١) وبالثانية إمامتهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحياءتين الحياة الأولى، في الدنيا، وإحياء البعث واحتج أكثر العلماء بهذه الآية على إثبات عذاب القبر كما نصت عليه السنة النبوية أيضاً ﴿ فَأَعْرَفْنَا بِدُنُوبِنَا ﴾ فلما شاهدوا البعث، اعترفوا بذنبهم، ليتوسلوا بذلك إلى ما علّقوا به أطماعهم، من الرجعة إلى الدنيا، كما قد صرّحوا به، حيث قالوا: ﴿ فَازْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ وهو الذي أرادوه بقولهم ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي هل تردنا إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ قالوه مع نوع استبعاد له، واستشعار يأس منه، وتنكير ﴿ سَبِيلٍ ﴾ للإبهام، أي من سبيل ووسيلة للخروج من النار؟ .

﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحَّدَهُ وَكَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُونَ ﴾
﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ جواب لهم باستحالة ما يرجون، أي ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ أي بسبب أن الشأن ﴿ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ ﴾ في الدنيا، أي عبّد ﴿ وَحَّدَهُ ﴾ أي منفرداً ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ بتوحيده ﴿ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُونَ ﴾ أي بالإشراك به، وتسارعوا فيه، وحيث كان حالكم كذلك ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ ﴾ الذي لا يحكم إلا بالحق، ﴿ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ الذي ليس كمثلته شيء، لا في ذاته،

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨ .

ولا في صفاته، ولا في أفعاله، والمشبهة استدلووا بالعلو في الجهة، والكبير في الجثة، وكل ذلك باطل.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ من السحاب، والرعد، والبرق، والصواعق، ونحوها الدالة على شؤونه العظيمة، الموجبة لتفرد بالألوهية ﴿وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي سبب رزق وهو المطر، وإفراجه بالذكر مع كونه من جملة الآيات، لكونه من آثار رحمته، وجلائل نعمته، الموجبة للشكر، وصيغة المضارع في الفعلين ﴿يريككم﴾ و ﴿ينزل﴾ للدلالة على تجدد ذلك، حيناً بعد حين، فإن أهم المهمات، رعاية مصالح الأديان، ومصالح الأبدان، فالله سبحانه راعي مصالح الأديان بإنزال الآيات، ومصالح الأبدان بإنزال الأرزاق، وعند حصولهما يحصل الإنعام التام، على أكمل الجهات ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات الباهرة، والنعم الكثيرة، ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي من يرجع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة، ويتفكر فيما أودعه الله في تضايف مصنوعاته، من شواهد قدرته الكاملة، ونعمته الشاملة، الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى، ومن ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ.

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فاعبدوه أيها المؤمنون، مخلصين له دينكم ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ذلك، وغاظهم إخلاصكم.

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ أي عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالي، ويحتمل أن يكون المراد منه الرافع، لأنه تعالى يرفع درجات الأنبياء، والأولياء في الجنة، ورافع درجات العلماء، فللملائكة درجات معيّنة، كما قال: ﴿ وَمَا مَثًا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ (١) وقال في حق العلماء: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢) ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أي مالكة وخالقه، فهو صاحب العرش العظيم الذي لا يعلم سعته إلا الله، ذكره تعالى إيذاناً بعلو شأنه، وعظيم سلطانه، الموجب لتخصيص العبادة به، وإخلاص الدين له ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أي ينزل الوحي على من شاء من خلقه، فالمراد بالروح «الوحي الرباني» سمي روحاً لأنه يسري إلى النفس كسريان الروح في الجسد، ذكره تعالى بعد بيان إنزال الرزق الجسماني، لأنه لا بدّ من غذاء الروح، وغذاء الجسد، وقوله تعالى: ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أي بسبب أمره بالخير ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي على أنبيائه ورسله، وهم الذين اصطفاهم للرسالة، وتبلغ أحكامه إلى عباده ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ وهو يوم القيامة، لأنه يتلاقى فيه أهل السماوات والأرض، والظالم والمظلوم.

﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ ﴾ أي خارجون من قبورهم، ظاهرون لا يستترهم شيء،

(١) سورة الصافات، آية: ١٦٤ .

(٢) سورة المجادلة، آية: ١١ .

كما جاء في الحديث «يحشرون عُرَاة حُفَاة» ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي شيء ما من أعمالهم، وأحوالهم، الجليلة والخفية، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب، أي يقال لمن الملك؟ أي ينادي مناد لمن الملك؟ فيجيبه أهل المحشر، لله الواحد القهار، وقيل: المجيب والسائل هو الله تعالى، ينادي الله جل وعلا، لمن الملك اليوم، فيسكت الخلائق هيبةً لله وفزعاً، فيجيب تعالى نفسه قائلاً: ﴿الله رب العالمين﴾.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي في ذلك اليوم - يوم الحشر بين العباد -، تجازى كلُّ نفس من النفوس، البرّة والفاجرة، بما كسبت من خير أو شر ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، لأنه تعالى ليس بظلام للعبيد ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي سريع حسابه، إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان، كما يرزقهم في ساعة واحدة، يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة، وقد ورد في الخبر «لا ينتصف النهار حتى يُقِيل - أي يستريح - أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار»^(١).

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾ أي يوم القيامة، سميت بها لأزوفها وهو القرب،

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي ٣٠١/١٥ والقيلولة هي الاستراحة وقت الظهيرة.

غير أن فيه إشعاراً بضيق الوقت، أَرَفَ الرَّحِيلُ: أي قَرُبَ، والإنسانُ عند معاينة ملائكة العذاب يعظم خوفه، فكأنَّ قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف، ولهذا قال: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ بدل من يوم الآفة، فإنها ترتفع من أماكنها فتلتصق بحلوقهم، ولا تخرج فيستريحوا بالموت ﴿كَظِيمٍ﴾ أي ممتلئين همماً وحسرة، كاظمين على الغمِّ والكربة ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي قريب مشفق أو صديق مخلص ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ أي ولا شفيع يشفع لهم، لينقذهم من العذاب.

﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿١٩﴾

﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ﴾ النظرة الخائنة بمسارقة النظر، قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع الناس، فتمرُّ المرأة فيسارعهم النظر إليها ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ من الضمائر والأسرار.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق، فلا يقضي بشيء إلا وهو حقٌّ وعدل ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ أي لا يحكمون بشيء أصلاً، لأنها جمادات، والجماد لا يقال في حقه يقضي، أو لا يقضي ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين، وقضائه بالحق، وهو وعيدٌ للخلق.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ ﴿٢١﴾

﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المكذبة كعاد وشمود ﴿ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي قدرة وتمكناً من التصرفات ﴿ وَعَاقِبَارًا ﴾ مثل القلاع الحصينة، والمدائن المتينة ﴿ فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أخذاً وبيلاً ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ يقيهم من العذاب، وينجيهم من الهول والكره.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

﴿ ذَلِكَ ﴾ ما ذكر من الأخذ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات الباهرات، والآيات الساطعات الظاهرات ﴿ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ ﴾ متمكن مما يريد غاية التمكن ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي عقابه شديد، وعذابه وجيع، لا يؤبه عند عقابه عقابٌ.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ وهي معجزاته ﴿ وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي وحجة قاهرة تدل على صدقه.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمٰنَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴾ .

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمٰنَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴾ فيما أظهره من المعجزات، وفيما ادعاه من الرسالة، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وبيان لعاقبة من هم أشد من كفار مكة.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ وهو ما ظهر على يده من المعجزات ﴿ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ كما قال فرعون (سنتقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم) وهذا القتل غير القتل الذي وقع في ولادة موسى عليه السلام، وكان فرعون قد كفَّ عن قتل الولدان، فلَمَّا بُعث عليه السلام، وأحسَّ بأنه وقع ما وقع، أعاده عليهم، غيظاً وحنقاً، زعماً منه أنه يصددهم بذلك عن دين موسى عليه السلام ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴾ أي في ضياع، وفي تخبطٍ وخسران، بعيد عن نور الإيمان.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ
دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ أي اتركوني لأقتل لكم موسى، يقوله لقومه كأنه يستشيرهم في قتله، وفي الطاغية خبث وجبروت، فقد كان فرعون سفاكاً للدماء لأهون الأشياء، فكيف لا يقتل من أحسَّ منه بأنه يثُلُّ عرشه؟ والظاهر أن فرعون لعنه الله، كان قد استيقن أنه نبي، ولكن كان يخاف إن همَّ بقتله أن يعاجله الله بالهلاك، وكان قوله هذا تمويهاً على قومه ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ تجلُّدٌ منه، وإظهار لعدم المبالاة بدعائه، ولكنه أخوف ما يخافه لعلمه بصدقه ﴿ إِنِّي أَخَافُ ﴾ إن لم أقتله ﴿ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أي أن يغيِّر ما أنتم عليه من الدين، الذي هو عبادة الأصنام ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ أي يثير الفتن والأحداث في بلدكم.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ
بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ .

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ لقومه حين سمع بما يقوله من حديث قتله ﴿ إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ صدر كلامه بان تأكيداً له، وإظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه، وخصّ اسم الرب المنبئ عن الحفظ والتربية، وإضافته إليه وإلى قومه حثاً لهم على موافقته في العيادة، والتوكل عليه، فإن في تظاهر النفوس تأثيراً قوياً في استجلاب الإجابة، لأن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة، قوي ذلك جداً، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلاة بالجماعة، ولم يسمّ فرعون لتعميم الاستعاذة من كل طاغية متكبر.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَنْتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ كان ابن عم لفرعون، آمن بموسى سراً وكان من الأقباط ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ من فرعون وملئه ﴿ أَنْتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴾ أي أتقصدون قتله ﴿ أَنْ يَقُولَ ﴾ أي لأن يقول ﴿ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ أي وحده، من غير روية وتأمل في أمره ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أضافه إليهم استنزالاً لهم عن رتبة المكابرة، ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال: ﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ لا يتخطى كذبه أحداً منكم فيحتاج في دفعه إلى قتله ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ (١) أي ينزل بكم

(١) إنما ذكر البعض تلطفاً بهم، مبالغاً في نصحهم، وإلا فهو موقن بأن العذاب الذي أوعدهم به موسى سينزل بهم كله، وإنما لم يقل يصبكم كل العذاب، لثلا يعلموا أنه على دينه، وأنه متعصب لموسى عليه السلام.

بعض ما وعدكم به، إن تعرضتم له بسوء، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف، وعدم التعصب، ولذلك قدّم كونه كاذباً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ احتجاج آخر ذو وجهين:

أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذاباً، لما هداه الله إلى البينات.

وثانيهما: إن كان كذلك خذله الله فلا حاجة إلى قتله، وقد عرّض به بكلامه على فرعون، بأنه مسرف كذاب، لا يهديه الله سبيل الصواب، ما زاد موسى عليه السلام في دفع فرعون، على الاستعاذة بالله، فقيّض الله تعالى إنساناً أجنبيّاً، حتى ذبّ عنه تلك الفتنة والشر، ولقد جربت في أحوال نفسي، أنه كلما قصدني شرير بشر، لم أتعرض له، وأكتفي بتفويض ذلك الأمر إلى الله تعالى، فإنه سبحانه يقيّض أقواماً لا أعرفهم يبالغون في دفع ذلك الشر عني.

﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ أي غالبين على بني إسرائيل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر، لا يقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ أي من أخذه وعذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ بقتل موسى ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعدما سمع نصحه ﴿مَا أُرِيكُمْ﴾ أي ما أشير عليكم ﴿إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ أي ما أستصوبه من قتله ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي الصواب، يقول ذلك متظاهراً بالجلد والشجاعة، ولقد كذب حيث كان مستشعراً للخوف الشديد، ولكنه كان يتجلد، ولولاه لما استشار أحداً!!

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ في تكذيبه والتعرض له بالسوء

﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَخْزَابِ﴾ أي مثل أيام الأمم الماضية، كيف أهلكهم الله بشتى أنواع العذاب، بالفرق، والريح العاتية، والصيحة المدمرة.

﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (٣١)

﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر وإيذاء الرسل ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب، وفيه مبالغة حيث نفى إرادة الظلم، ومن كان بعيداً عن مجرد الإرادة، كان عن الظلم أبعد.

﴿وَيَنْقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (٣٢)

﴿وَيَنْقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ خوَّفهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي، و ﴿يوم التناد﴾ يوم القيامة، حيث ينادي فيه المجرمون بالويل والثبور.

﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٣)

﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ أي منصرفين من الموقف إلى النار، أو فارين عنها ﴿مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم من عذابه ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى طريق النجاة.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيْنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (٣٤)

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ أي من قبل موسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحة ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ من الدين ﴿حَقًّا إِذَا هَلَكَ﴾ بالموت ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ ضمناً إلى تكذيب رسالته، تكذيب رسالة من بعده، وإنما قالوا ذلك على سبيل التشهي والتمني، من غير حجة ولا برهان، وجعلوه أساساً في تكذيب الأنبياء ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في عصيانه ﴿مُرْتَابٌ﴾ في دينه، شكاً فيما تشهد به الآيات.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي بغير حجة صالحة للتمسك بها، بل بالتقليد الأعمى ﴿أَتَتْهُمْ﴾ أي جاءهم من عند الله ﴿كَبْرَ مَقْتًا﴾ أي عظم بغضاً ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي عند الله وعند المؤمنين، وفيه ضربٌ من التعجب والاستعظام، كأنه يقول: ما أعظمه؟ ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الطبع ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتباب، والمجادلة بالباطل، قالوا: كمال السعادة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة لخلق الله، والتكبر كالمضاد للتعظيم، والتجبر كالمضاد للشفقة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ ابْنُ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ ابْنُ لِي صَرَخًا﴾ أي بناءً شامخاً ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ أي الطرق الموصلة إلى السماوات العلى.

﴿ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا
وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ
إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ ﴾ بيان لها، أي طرق السموات وما يؤدي إليها
﴿ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴾ في ادعائه بوجود إله
﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ ﴾ فانهمك فيه وكان
لا يرعوي بحال ﴿ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أي سبيل الرشاد، والفاعل في الحقيقة
هو الله تعالى، والمزين هو الشيطان بوسوسته، كقوله تعالى: ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ ^(١) وقرىء بالفتح على أن فرعون
صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التموهيات والشبهات، ويؤيده قوله
تعالى: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ أي في خسارٍ وهلاك، ونظيره
﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أي خسران .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ
الرَّشَادِ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ ﴾ من آل فرعون، نادى قومه ثلاث مرات،
ناصحاً ومذكراً، وهو إنما تعلّم هذا من موسى عليه السلام ﴿ يَنْقُومِ
اتَّبِعُونِ ﴾ فيما دللتكم عليه ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أي سبيلاً يصل
سالكه إلى المقصود، وفيه تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغي
والضلال، لأنه إنما يدعو قومه إلى الظلم والطغيان .

(١) سورة النمل، آية: ٢٤ .

﴿ يَتَقَوَّمُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ
الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ .

﴿ يَتَقَوَّمُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ ﴾ أي تمتع يسير، لسرعة زوالها
﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ لخلودها ودوام ما فيها.

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ .

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ عدلاً منه سبحانه ﴿ وَمَنْ عَمِلَ
صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴾ أي بغير تقدير وموازنة بالعمل، بل أضعافاً مضاعفة، فضلاً من
الله، وجعل العمل عمدة، والإيمان أساساً، للإيدان بأنه لا عبرة بالعمل
بدونه، ولهذا جاءت الجملة اسمية ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ .

﴿ وَيَتَقَوَّمُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ .

﴿ وَيَتَقَوَّمُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴾؟ كرر نداءهم
إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة، واعتناءً بالمنادي له.

﴿ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا
أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ .

﴿ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ ﴾ فيه معنى التعجب، كأنه يقول: أنا أعجب
من حالكم هذه، أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَالسَّعَادَةِ، وتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ
وَالجَحِيمِ، بسبب الكفر بالله العظيم؟ ﴿ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ ﴾ أي بشركته

له سبحانه في المعبودية ﴿عِلْمٌ﴾ أي بربوبيته، والمراد نفي المعلوم، والإشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان موجب للعلم بها ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أي أدعوكم إلى عبادة الواحد الأحد، الجامع لجميع صفات الألوهية، من كمال القدرة، والإرادة، والتمكن من المجازاة على التعذيب والغفران.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي حقاً ثابتاً، أنه لا شك في بطلان ما أنتم عليه، من دعوة آلهتكم إلى عبادتها، لأنها جمادات، ليس لها ما يقتضي القدرة على شيء، لا تقدر على تفريج كربة ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى بالموت، عطف على ما تدعونني داخل في حكمه، وكذا قوله: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي في الضلال والطغيان، كالإشراك بالله، وسفك الدماء ﴿هُم أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ أي سيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب ﴿مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ قاله لما توعدوه بالقتل ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فيحرس من يلوذ به من المكاره.

﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ أي شدائد مكرهم، وما هموا به من

إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم، قيل نجا مع موسى عليه السلام ﴿وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي نزل بفرعون وقومه، وعدم التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره، ضرورة أنه أولى منهم بذلك العقاب ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي نزل بهم أسوأ أنواع العذاب، ثم فسره بقوله:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ المراد بعرضهم على النار إحراقهم بها، من قولهم: عُرِضَ الأسارى على السيف، إذا قُتِلُوا به ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وذكر الوقتين للتأيد، كأنه يقول: عذابهم مستمر ما دامت الدنيا، روى الشيخان عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ، عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١) فَذَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْعَذَابَ مُسْتَمِرٌّ، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يُقَالُ لِلْمَلَايِكَةِ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي يقال لهم: أَدْخِلُوا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي هي أشد من كل عذاب نالوه قبل ذلك، وهذه الآية دليل على عذاب القبر، لأن عرض النار عليهم كان بعد الموت، وقبل البعث.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجَّبُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿وَإِذْ يَتَحَاجَّبُونَ فِي النَّارِ﴾ أي اذكر لقومك وقت تخاصمهم فيها

(١) أخرجه البخاري ٣/١٩٣ في الجنائز، ومسلم رقم ٢٨٦٦ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، والترمذي رقم ١٠٧٢ باب ما جاء في عذاب القبر.

﴿فَيَقُولُ الضَّعْفَتُوا﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم رؤساؤهم أكابر مجرميها ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي أتباعاً، كخادم في جمع خادم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ﴾ أي دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾؟ بالدفع أو بالحمل؟.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ ﴿٤٨﴾.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي نحن وأنتم فيها، فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا على إزالة العذاب، لرفعناه عن أنفسنا ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي قضى قضاء لا مردَّ له، ولا معقب لحكمه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٩﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ من الضعفاء والمستكبرين جميعاً، حين اشتد عليهم العذاب ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي لحراسها، ووضع جهنم موضع الضمير للتهويل، وليبان أنهم في أبعد دركات الجحيم ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ أي ولو مقدار يوم واحد من هذا العذاب، واقتصارهم على هذا، دون رفعه رأساً، أو تخفيف قدر كثير منه، لأن ذلك عندهم شبيه بالمستحيل، ولا يدخل تحت أمانهم.

﴿قَالُوا أَوْلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ﴿٥٠﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي الخزنة توبيخاً ﴿أَوْلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؟ أي أما كانت الرسل تأتيكم في الدنيا بالحجج الواضحة، الدالة على سوء حال ما كنتم عليه؟ أرادوا بذلك إلزامهم، وتوبيخهم على إضاعة أوقات

الدعاء ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي أتونا بها فكذبناهم، كما نطق به قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾^(١) ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإن الدعاء للكاذبين، مما يستحيل منّا ﴿وَمَا دُعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي دعاؤكم لا ينفع ولا يُسمع، لأنه دعاء الكافر الفاجر، وما دعاء الكافر إلا في ضياع وبطلان، وهو من تنمة كلام خزنة جهنم.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٥١).

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة، ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق للكفار من صورة الغلبة امتحاناً، إذ العبرة إنما هي بالعواقب، وهذا الكلام مسوق من جهته تعالى، لبيان أن ما أصاب الكفرة من لوازم ما تقتضيه الحكمة، وهي نصرة الرسل الكرام وأتباعهم في الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي القيامة، عبّر عنها بذلك، للإشعار بكيفية النصرة، وأنها تكون عند جمع الأولين والآخرين، بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(٥٢).

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ أي يوم لا ينفع المجرمين اعتذارهم لأنه باطل ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي البعد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي جهنم.

(١) سورة الملك، آية: ٩.

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ .

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ ﴾ ما يهتدي به من المعجزات، والصحف، والشرائع ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ التوراة التي أنزلها الله على موسى .

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ ﴾ أي هداية وتذكرة، أو هادياً ومذكراً ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ لذوي العقول السليمة.

﴿ فَاصْبِرْ إِنِّي وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ .

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذى المشركين ﴿ إِنِّي وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ الذي ينطق به قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾^(١) أو وعده الخاص بك، أو جميع مواعده تعالى ﴿ حَقًّا ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلاً، واعتبر بحال موسى وفرعون ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ أي تدارك لما فرط منك من ترك الأولى، فإنه تعالى كافيك في نصره دينك، وإظهاره على الدين كله ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ أي دم على التسبيح، ملتبساً بحمده.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

(١) سورة الصافات، آية: ١٧١ - ١٧٣ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنْتَهُمْ ﴾ في ذلك من جهته تعالى، وتقييد المجادلة بذلك، للتنبيه على أن التكلم في أمر الدين، لا بد من استناده إلى سلطان مبین، وهذا عام لكل مجادل مبطل، وإن نزل في مشركي مكة ﴿ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ أي ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق، وتعظم عن التفكير والتدبر، يمنعهم من اتباعك، حسداً وبغضاً ﴿ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ صفة لكبر، أي ما هم ببالي مقتضى ذلك الكبر، ولا بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أي فالتجئ إليه تعالى، من كيد من يحسدك، وفيه رمز إلى أنه من همزات الشياطين ﴿ إِنَّكَ هُوَ السَّكِيمُ الْبَصِيرُ ﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ تحقيق للحق، وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه، من أمر البعث، على منهاج قوله تعالى: ﴿ أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ (١)؟ وهم يعتقدون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض، ولا يؤمنون بالبعث، ولما وصف الله جدالهم، ذكر لهذا مثلاً فقال: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ والقادر على الأكبر، قادر على الأصغر، لامحالة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن خلق الأصغر، أسهل من خلق الأكبر، لقصورهم في النظر والتأمل، لفرط غفلتهم، واتباعهم لأهوائهم.

(١) سورة يس، آية: ٨١.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ أي الغافل والمتبصر، والعالم والجاهل، والمؤمن والكافر ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ أي ولا يستوي البرُّ والفاجر، ولا المحسن والمسيء ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكر أقل قليلاً بمعنى: ما أقل من يتذكر منكم؟! .

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ لَارِيبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ لَارِيبَ فِيهَا ﴾ أي في مجيئها، لوضوح شواهدها، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ أي الكفار الذين ينكرون البعث ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لقصور أنظارهم، وقصرها على ظواهر ما يحسون بها.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي ﴾ أي اعبدوني ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي أُنِيبكم لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي صاغرين ذليلين، وإن فسر الدعاء بالسؤال، كان الأمر الصارف عنه، منزلاً منزلة الاستكبار عن العبادة، أو المراد بالعبادة الدعاء فإنه أفضل أبوابها، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر:

«الدعاء هو العبادة، وقرأ ﷺ ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم..﴾ الآية» (١).

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ بأن خلقه بارداً مظلماً، ليؤدي إلى ضعف الحركات، وهدوء الحواس، لتستريحوا فيه ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي مضيئاً لتبصروا فيه مصالحكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي فضلٍ عظيم، لا يدانيه ولا يوازيه فضل ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لجهلهم بالمنعم، واعتقادهم أن هذه النعمة ليست من الله، ثم إن النعمة إذا دامت واستمرت نسي الإنسان كونها نعمة، فإذا ابتلي بفقدان شيء منها، عَرَفَ قدرها، مثل أن يتفق لبعض الناس - والعيادُ بالله - أن يحبسهُ بعضُ الظلمة، في بئر عميقة مظلمة، مدة مديدة، فحينئذ يعرف ذلك الإنسان، قدر نعمة الهواء الصافي، والضوء، ورأيت بعضهم يُعَدِّبُ بمنعه عن الاستناد والنوم.

﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿٦٢﴾ .

﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي هو سبحانه المتفرد بالخلق ﴿ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو، وهذه أخبار مترادفة، أي هو الجامع بين الربوبية، والألوهية، والوحدانية، والخالقية لكل شيء ﴿ فَآَنِي تُؤْفَكُونَ ﴾؟ أي فكيف ومن أيِّ وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ .

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ١٤٧٩ في الصلاة، والترمذي رقم ٣٢٤٤ في التفسير، وقال: حديث حسن صحيح.

﴿ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي مثل ذلك الإفك والصرف العجيب، يُصرف عن الإيمان كل من جحد بآياته تعالى، أي آية كانت، ويُصرف عن الهدى والحق، إلى العمى والضلال!! .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ
رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ أي جعل الأرض ممهدة صالحة لسكناكم، تبنون عليها الدور والقصور، وجعل السماء كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم، فضلاً منه وكرماً ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾ أي صَوَّرَكُمْ أحسن تصوير، حيث خلقكم منتصبين القائمة، ولم يخلقكم منكوسين كالبهائم، وجعل صوركم أحسن الصور ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي اللذائذ ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ذلكم الفاعل لِمَا ذُكِرَ ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي بالكهَم ومريهم، والكلُّ تحت ملكوته، مفتقر إليه في ذاته، وسائر أحواله، بحيث لو انقطع فيضه عنه ثانية، لانعدم بالكلية .

﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية الحقيقية ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، إذ لا وجود يدانيه، في ذاته، وصفاته، وأفعاله ﴿ فَادْعُوهُ ﴾ فاعبدوه خاصة ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي مخلصين الطاعة والعبادة، من الشرك الجلي، والخفي ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي قائلين: الحمد لله رب العالمين، حمداً له على نعمة الخلق والإبداع .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي
الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٦٦﴾ .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي قل يا محمد:
إن ربي العظيم الجليل نهاني أن أعبد هذه الآلهة المزعومة، التي تعبدونها
من الأوثان والأصنام، وذلك حين طلب الكفار منه ﷺ عبادة الأوثان قيل
هذا ﴿ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ من الحجج والآيات الكونية، والتنزيلية
﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بأن أخلص له ديني.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً
ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ
قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي
هو جل وعلا الذي أوجدكم أيها الناس من العدم، فخلق أصلكم آدم من
تراب، ثم خلق ذريته من النطفة من الماء المهين، وجعل الإنسان يمرُّ في
أدوار وأطوار، من النطفة، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى اكتمال نمو
الطفل، ثم يخرج من بطن أمه طفلاً صغيراً ضعيفاً، ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ
ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلِ ﴾ أي من قبل الشيخوخة
﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾ وهو وقت الموت ﴿ وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي
تعقلوا ما في ذلك من الحكم والعبر.

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ﴿٦٨﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي يحيي الأموات، ويميت الأحياء، ويفعل
الإحياء والإماتة ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فلا يحتاج في تكوينه

إلى مُدَّة، وتجشم كلفة، وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى في المقدورات عند تعلق إرادته بها.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصَرَّفُونَ ﴾ ﴿٦٩﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصَرَّفُونَ ﴾؟ تعجب من أحوالهم، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن، وبسائر الكتب، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين، المجادلين في آيات الله تعالى الواضحة، الموجبة للإيمان، كيف يصرفون عن التصديق بها، مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها؟.

﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ ﴾ أي بالقرآن والكتب السماوية، فإن تكذبه تكذيب للكل، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق، كما أن صيغة المضارع في الأولى، للدلالة على تجدد المجادلة ﴿ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ من الوحي والشرائع ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة ما فعلوا من الجدل والتكذيب عند عقوبتهما.

﴿ إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ ﴿٧١﴾ .

﴿ إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ أي يسحبون بها.

﴿ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾ .

﴿ فِي الْحَمِيمِ ﴾ أي يُجْرُونَ في الماء الحار ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ أي يحرقون، والمراد بيان أنهم يُعذبون بأنواع العذاب.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا
 بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ أي أين الأوثان التي عبدتموها من دون الله تعالى؟ .

﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أي غابوا عنا، بل تبين لنا أننا لم نكن نعبد شيئاً، جحدوا عبادتهم لحيرتهم واضطرابهم ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الضلال ﴿ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم في الآخرة.

﴿ ذَالِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
 تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ ذَالِكُمْ ﴾ أي الإضلال ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي بسبب أنكم كنتم تبصرون وتتكبرون ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بالشرك والطغيان ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي تتوسعون في البطر والأشر، وتتكبرون عن عبادة الله .

﴿ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

﴿ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أي أبوابها السبعة، قال الله تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾^(١) ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدراً خلودكم فيها ﴿ فِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي عن الحق، والتعبير بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود الدائم، فهي المأوى والمسكن لهم .

(١) سورة الحجر، آية: ٤٤ .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوْفِيقَنَا فَالْتِمْنَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٧)

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أي فاصبر يا محمد على إيدائهم، وعلى ضروب ما ترى منهم من بلاء، فعمّا قريب سترى ما يحلُّ بهم ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بتعذيبهم ﴿ حَقٌّ ﴾ كائن لا محالة ﴿ فَكَيْمَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ وهو القتل والأسر ﴿ أَوْ تَوْفِيقَنَا ﴾ قبل ذلك ﴿ فَالْتِمْنَا يَرْجِعُونَ ﴾ يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم، ولن يُفَلتوا من عقابنا.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٧٨)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ فإنَّ عدد الأنبياء كبير مائة وأربعة وعشرون ألفاً كما ورد في الحديث الشريف، والمذكور أفراد معدودة، أي منهم من أخبرناك عن قصصهم وأخبارهم مع أمهم، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأحوالهم ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ أي ما صحَّ لرسول من الرسل ﴿ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي أن يأتي قومه بشيء من المعجزات، إلاَّ بأمر الله تعالى وإذنه، فإن المعجزة على شعب فنونها عطايا من الله تعالى، قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته، المبينة على الحكم البالغة، وهذا ردُّ على كفار قريش، حيث قالوا للنبي ﷺ: إن كنت رسولاً فاجعل لنا جبل الصفا ذهباً، وأجر لنا الأنهار في فجاج مكة!! ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿ فُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ بإنجاء المحق وإثابته، وإهلاك المبطل وتعذيبه ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي المتمسكون بالباطل، فيدخل فيه المعاندون، المقترحون للمعجزات على سبيل التعتُّ.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿٧٩﴾ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ ﴾ قيل هي للإبل خاصة، أي خلقها لأجلكم ومصالحكم، وقيل: هي الأزواج الثمانية «الإبل، والبقر، والغنم، والماعز» وهو الأصح ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ كالإبل ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كالغنم والبقر.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَاحِ تَحْمَلُونَ ﴾ ﴿٨٠﴾ .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ آخر كالأبناها، وأوبارها، وجلودها ﴿وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بحمل أثقالكم من بلدٍ إلى بلد ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَاحِ تَحْمَلُونَ﴾ أي وعلى هذه الإبل في البر، وعلى السفن في البحر، تحملون أنتم وذرياتكم، وإنما قرن سبحانه بين الإبل والسفن، لما بينهما من المناسبة المثينة، حتى سميت الإبل «سفن البر».

﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ ﴿٨١﴾ .

﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ دلائله الدالة على كمال قدرته، ووفور رحمته ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي أي آية من تلك الآيات الباهرة ﴿تُنْكِرُونَ﴾؟ فإن كلاً منها من الظهور، بحيث لا يكاد يجترىء على إنكارها من له عقل.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا

أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَهَذَا رَأَى فِي الْأَرْضِ ﴿ أَي كَانُوا أَكْثَرَ عِدَدًا مِنْ كِفَارِ مَكَّةَ، وَأَقْوَى مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ﴿ فَمَا أَخْفَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أَي أَيِّ شَيْءٍ أَغْنَى عَنْهُمْ مَكْسُوبُهُمْ؟ لَمْ تَعْصِمَهُمْ قُوَّةٌ، وَلَا كَثْرَةٌ، وَلَا عِمْرَانٌ، يَعْنِي لَوْ سَارُوا لَعَرَفُوا، أَنَّ عَاقِبَةَ الْمُتَكَبِّرِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ، لَيْسَتْ إِلَّا الْهَلَاكُ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرَ عِدَدًا وَعُدَدًا.

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ﴿ ٨٣ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بِالْمَعْجَزَاتِ الْوَاضِحَاتِ ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أَي الْعِلْمَ بِأُمُورِ الدُّنْيَا الْخَالِيَةِ عَنِ نُورِ الْهُدَايَةِ وَالْوَحْيِ وَهُوَ مَا لَهُمْ مِنَ الْعَقَائِدِ الزَّائِغَةِ، وَتَسْمِيَّتِهَا عِلْمًا لِلتَّهْكَمِ بِهِمْ، وَالْمُرَادُ بِفَرِحِهِمْ ضَحْكَهُمْ وَاسْتَهْزَاؤَهُمْ بِهِمْ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَي نَزَلَ وَأَحَاطَ بِهِمْ جَزَاءُ كُفْرِهِمْ وَاسْتَهْزَائِهِمْ بِالرُّسُلِ وَالآيَاتِ.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ ٨٤ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أَي فَلَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ آمَنُوا، وَخَضَعُوا، وَاسْتَسْلَمُوا، وَقَالُوا آمَنَّا بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ، يَعْنُونَ بِذَلِكَ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ، الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ ٨٥ ﴾ .

﴿ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ لامتناع قبوله حينئذ، لأن النافع هو الإيمان الاختياري، لا الاضطراري ﴿ سُنَّتَ اللّٰهُ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ أي سنَّ الله تعالى ذلك، سنة ماضية في العباد ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس والعذاب. يا من تقاصرت عن الإحاطة بجليل أسرار كبرياته أفهام المتفكرين، لا تجعلنا بفضلك ورحمتك في زمرة الخاسرين، ولا تجعلنا يوم القيامة من المخذولين والمحرومين، فإنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وصلوات الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر»

* * *